إِنَّكَ لِمِنَ المُنظَرِين

حكاية نصف شيطان

اسم الكتاب: إنك لمن المنظرين
حكاية نصف شيطان
التأليف: إيمان الوكيل
تحرير أدبي: خالد الجزار
نوع العمل: رواية
مراجعة لغوية: سواح للخدمات عبر الإنترنت
إخراج فني: عمرو سالم سواح
رقم الإيداع: 2020/ 21064
الترقيم الدولي: 978-977-835-219-1
الناشر: زحمة كتاب للنشر والتوزيع
١٥ ش السباق – مول المريلاند – مصر الجديدة – مصر

دار زحمة كتاب للنشر
Facebook
Email za7ma-kotab@hotmail.com
Tel 002 01205100596
002 01100662595

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة ©
لدار زحمة كتاب للنشر

لا يحق لأي جهة طبع أو نسخ أو بيع هذه المادة بأي شكل
من الأشكال ومن يفعل ذلك يعرض نفسه للمساءلة القانونية

إنَّك لمِن المُنظَرين

رواية

الكاتبة

إيمان الوكيل

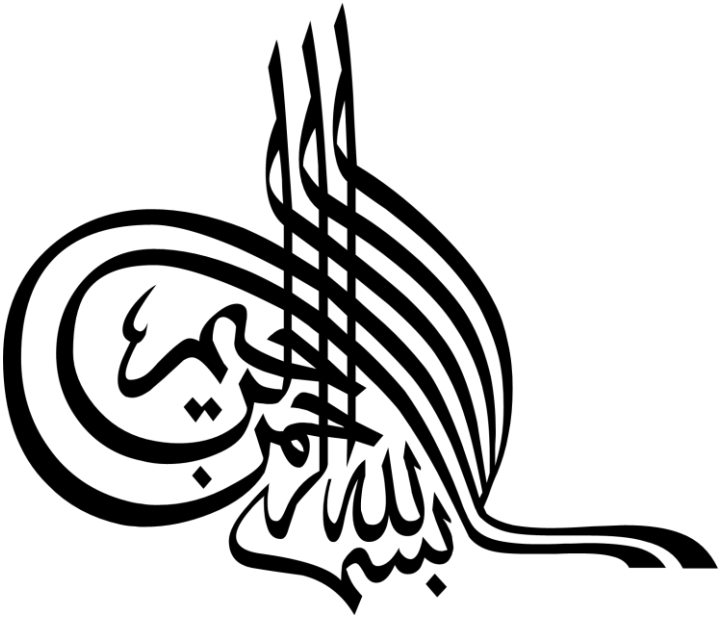
بسم الله الرحمن الرحيم

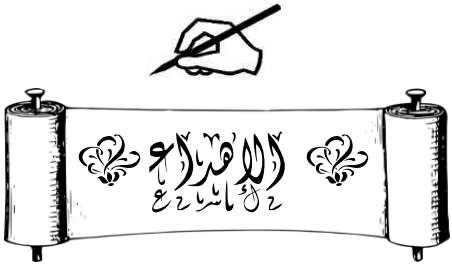

إلى آيةَ حياتي.. آيةَ ابنتي

الفصل الأول

ابن الوزير

ضاق صدره بمشاعره المتضاربة وهو في طريقه لمقابلة عمه الملك؛ مترددًا بين عقله وقلبه، احتلت ذاكرته صور الماضي المشوشة، وعلامات الاستفهام المحيطة بعمه، أعاد على نفسه السؤال عن سبب استدعائه إياه، خمَّن كثيرًا من الأسباب، كرهها كلها، أصدرت البوابة الرئيسية للقصر صريرًا عظيمًا، انحنى الحرس وهم يفسحون له الطريق، قدّم له الجند تحية كبار العشيرة من الأبراج، حيَّاه الوزراء وكبار موظفي المملكة الخارجون من القاعة الملكية، رد تحيتهم دون الالتفات إليهم.

فُتِحت البوابة الذهبية للبهو الملكي بعد النداء باسمه وصفة أبيه، مشى رافعًا رأسه على بساطٍ حريري مطرز بخيوط الذهب، صُفت على جانبيه مقاعد وثيرة ضخمة محشوَّة بإسفنج البحار من الظهر والأجناب مرصعة بالأحجار الكريمة واللؤلؤ، عكست خطواته الرشيقة بريق خيوط السجاد على السقف المرمري؛ ومضات سريعة برقت وخفتت مع انتظام خطواته.

رُصَّت على الأرض وسائد كبيرة بألوان دموية محشوة بريش النعام على الجانبين، اتكأت عليها الجواري العاريات بجوار أعمدة الذهب المنحوتة على شكل وحوش ضارية، وُضِع بدلًا من عيونها جواهر حمراء مضيئة، اختلطت روائح الخمر مع الدم.

أثارت رائحة الملك وملامحه الدميمة وخيوط اللحم النَّيئ العالقة بأنيابه الطويلة البارزة شعورَه بالغثيان، اقترب أسفل العرش؛ خفض رأسه تحية الاحترام؛ رفعها متحاشيًا التلاقي وعيني عمه الواسعتين الحمراوين، وقف بجواره ابنه الأكبر "مُرَّة"، ورغم تمثله في شكل جميل، إلا أنه رماه بنظرة غِلٍّ مغلفة بالاحتقار، لم يبالِ بها "أيهم"، ردها بابتسامة، رفع صوته:

- أي ملكي العظيم، يومي سعيدٌ برؤيتك، أتمنى لك يومًا رائعًا بالإنجازات والفوز على أعدائنا.

رد غاضبًا بصوته القوي الهادر، اهتزت له الأعمدة، سقطت زجاجتا خمر ممزوج بدم القرابين البشرية على الأرض متناثرتين، فاختط لون السائل المسكوب بلون الأرض المنحوتة من المرجان الأحمر:

- من أين لي بالسعادة، ولي ابن أخ مثلك خانع كسول ضعيف، أسوأ خلف لخير سلف؟

تلجلج:

- أيا عمي ومولاي الباقي السرمدي، أنا طوع إشارتك، مُرْني أفعلْ.

• ألم آمرك بالانتظام في حضور اجتماع غروب الشمس لنيل موافقة مجلس الكبار؛ لتخلف أبيك الوزير الأعلى..

علا صوته أكثر، انتفضت الجواري، سقط "طايع" خادم الملك على الأرض:

• ألم آمرك بالتجهيز للزواج من ابنة الملك "سائد"؛ لضمان استمرار موالاته في حربنا مع عدونا الملك الأزرق؟

فرك "أيهم" كفَّيه:

• أعتذر مولاي، كنت مريضًا منذ وفاة أبي وأنا..

انتصب أبو مُرة واقفًا بغضب، ارتفع فوران النيران المتقدة إلى السقف المرتفع في جوانب القاعة، مصدِرة شهيقًا عظيمًا:

• أجننت؟ أراك تستخف بي.

تحولت ملامح مُرة إلى شكله الحقيقي الدميم، أصابت الرهبة قلبه، حرك أيهم سبابته علامة النفي، صرخ الملك:

• أنا إبليس.. ملك ملوك الجان والشياطين، أنا الأعظم، أنا.. أنا أعظم مخلوقات الكون، تتصور أني لا أعلم بأفعالك؟! كل خطوة تخطوها أعلمها.

علا صراخه، لفَّ حول نفسه رافعًا ذراعه لأعلى مختالًا:

• أنا الملك الأعظم، لا مُلك تحت السماء يضاهي ملكي، أو عرش يعلو على عرشي أو تاج أفخم من تيجاني.

ركع مُرة أمام أبيه:

- أنت.. أنت إبليس العظيم، يا من تشرق الشمس وتغرب بين قرونه، أبد السنين، مُرْني أقتله.

أشار إليه بالرفض، انحنى أيهم مرتجفًا:

- أمر مولاي سأتزوجها.

أشاح الملك بوجهه بعيدًا عنه:

- هذا إن وافق الملك سائد، فأخبار تهاونك في الأخذ بثأري من بني آدم، ورفضك المشاركة في حروبنا جابت الممالك شرقًا وغربًا، أنت شيطان مستهتر، لم تقم بما يؤهلك لتكون الوزير الأعلى لمملكة إبليس العظيم، منذ متى لم تحضر اجتماع الغروب اليومي؟

اصطبغ وجه أيهم الجميل بالحمرة، ولم ينبس ببنت شفة، عاود الملك استجوابه:

- أجبني؛ هل حصلت على تاج إبليس في سباق الغواية اليومية حتى ولو مرة واحدة؟! في حين حصل عليه ابنا عمك نائل وقسورة مئات المرات، وأنت تعلم انشغال أبنائي وبناتي السعالي مع البشر، قد وكلت إليهم أصعب الأعمال، مهامنا الأساسية في أخذ حقنا من بني آدم الأغبياء؛ أنتركهم يستمتعون بحياتهم بعد أن تسببوا في هبوطنا من الجنة؟!

عقد إبليس ذراعيه على صدره:

• من سيحمل معي مهام المملكة وشئونها؟ ألا يهمك تثبيت ملكنا وإحكام السيطرة على شعوبنا من الجن والمردة والشياطين؟ سيصبح للجن المؤمن الغلبة علينا إن أحسوا بضعفنا، ألم يخبرك أبوك بتاريخ تمرُّد الجن الأحمر في السابق؟ ألم يخبرك باستعباد بعض السحرة التافهين من بني آدم جنَّ سليمان.. وكيف حاكمنا أولئك السحرة واستعدنا عبادنا من قبضتهم، هذا غير معركتنا الأزلية مع بني آدم، هل أخضعهم وحدي أنا وأبنائي؟! نعمل ونجتهد؛ وتبقى أنت وأمثالك للمتعة واللهو، لمَ لا تتولى حضور اجتماعات عبادنا من بني آدم؟ لمَ لا تحضر بدلًا مني التخطيط لعباد ومريدين كحليفنا المسيخ الأعور؟!، أتعلم ما وصل إليه عالم البشر في حروبهم؟ صنيعك هذا جهل ولا مبالاة بأسباب وجودنا تحت السماء لا فوقها.

هدر صوت إبليس محذرًا:

• هذا آخر إنذار لك وإلا سأُعين أحد أبناء عمك الأصغر خلفًا لأبيك وأزوّجه من الأميرة سولاف ابنة الملك سائد، ولأجعلنَّ منك أضحوكة ممالك الجن كلها، ولتنسَ أنك كنت يومًا من عشيرة الأبالسة.

استحث مُرة أباه:

• لم يحضر أيًّا من اجتماعاتنا منذ موت عمي الوزير الأعلى، إنه بلا فائدة.

قبل أن يردَّ أيهم، تجهَّم إبليس وتصبَّب عرقًا أحمر اللون، أشار إليه لاهثًا، وهو ينفث هواءً ساخنًا، حمل رائحة الروث، ليخرج من القاعة الملكية. أسرع الخطى إلى باب القاعة، تغمره نظرات الشبق والوله من الجواري والغانيات.

*****

الفصل الثاني

ثريا

في طريق العودة دار أيهم في جولة واسعة حول الأرض، محاولًا التلهِّي عن ضيقه، شاهد أطفال بني آدم يلهون ويلعبون، جلس العشاق جنبًا إلى جنب، يتهامسون، شعر بالملل، استدار ليعود، فوجئ بشيطان من قبيلة رخيصة؛ خدام السحرة، جالسٍ مع فتاة بشرية يسامرها، غلف العشق نظراتها، أمسكتْ يده بكفيها، أخيرًا وجد فرصة للتسلية؛ أمره بالاختفاء، أطاعه، تأملت كفيها الفارغتين، عصف بها الرعب، سقطت مغشيًا عليها.

قبل أن ينهي ضحكته، لاحظ قزمًا من قبيلة الأقزام الطيارين جواسيس إبليس، يراقبه متخفيًا في عيني إنسي، ارتفع لأبعد مسافة يسمح للجان الاقتراب فيها من السماء الأولى، بسرعة البرق، هبط وغاص في أقرب محيط، عجز القزم الطيار عن متابعته، فقد أثره، سقط صريع الخوف من عقاب إبليس.

كرَّ راجعًا إلى سطح الماء حيث قصره الفضي الذي أقامه أبوه تلبية لرغبة أمه، مخالفًا رغبة إبليس وهو ما زاد بغضه لها.

عكست مباني القصر ضوء الشمس على الأمواج، تلألأ سطح المحيط، عاين حراسه من المردة الطيارين في الأعلى، والشياطين الغواصة من أسفله، ألقى بنفسه في حوض السباحة المبطَّن بالمرمر والمطعَّم بالأحجار الكريمة الملوَّنة وتنفس الصعداء.

أسرع "شيتو" خادمه ومربيه إلى بهو المغطس للاطمئنان عليه، صعد بعد غطسةٍ طويلةٍ غسلت كل غضب اللقاء، ابتسم مرحبًا:

- سعيدٌ بعودتك سالمًا يا مولاي.
- سالمًا؟! مِمَّ تخاف؟ قابلت عمي، ليس الملك الأزرق.
- أخاف عليك من غضبه.
- لا تخشَ شيئًا أيها المُعمَّر.

أكمل مداعبًا:

- ألن تموت أيها الجِني المُسِن؟

انحنى شيتو:

- أتمنى أن يطول عمري لأخدم أبناءك وأربيهم، كما ربيتُ مولاتي أمك وخدمتها.

رشَّه بالماء مداعبًا، غطس ثانية مستمتعًا بالماء، فجأة سقطت على رأسه كتلة ضخمة، أحدثت فيضانًا في المغطس، تألم من ارتطامها، دفعها بكلتا يديه إلى حافَّته، تعالى صراخه بصوت أجش، عرفه من صوته صديقه ساهر الجني الضخم، فلكمه معاتبًا:

• يا لك من شيطان سخيف ألا تقلع عن هذه العادة البغيضة؟!

رد ضاحكًا:

• ما لك تغضب كبني آدم لمزاح بسيط؟!

• ثقيل الوزن والدم، أهذا مزاح؟!

وصرخ فيه مقلدًا عمه سقيمًا:

• حسنا، آمرك أنا الوزير الأعلى المنتظر بالإقلاع عن غبائك ومزاحك الثقيل الظل.

صرخ ساهر فرحًا، وقفز في الماء عاريًا:

• أصدر إبليس العظيم قرارَه؟

نظر إليه ولم يرد، تعجَّب الضخم:

• ما لك غير سعيد؟ أين ريڤال؟ لماذا لا أراها؟ كانت لا تفارقك.

• أمرتها بالابتعاد عني حتى تزول عنها رائحة ما شربته من دماء ليلة الحفل.

• تبًّا لك، تتسبب في حرماننا من كؤُوْس الدم، لا أعلم كيف تستغني عن جمالها وصوتها لأمر عادي مثل هذا؟! أشك أنك لست شيطانًا، أو أنك تتبِّع الجن الكفرة بإبليس.

لوى أيهم شفتيه ساهمًا، حدَّث نفسه: "أنا نفسي أتعجب لصفاتي الغريبة عنكم، أظنها صفات أمي.. "

انتبه من شروده، أكمل حديثه مصطنعًا المرح:

- أما الجنيات فكلهن سواء.. جميلات، ذهبت ريفال، أتت نيجار، المهم ألا تشرب الدم.

علت ضحكاتهما، نادى لإحضار المناشف، أتى شيتو مسرعًا، انحنى، التقط واحدة، لف نفسه بها، ضحك رفيقه:

- تخجل كبني آدم، إنك شيطان غريب.

ردَّ أيهم منتشيًا:

- ما غريب إلا الشيطان.

جلجلت ضحكته في المكان، نظر ساهر إليه غاضبًا متعجبًا:

- (تألش) مثل أعدائنا من بني آدم؛ تسخر من بني جنسك؟!

التفت لشيتو:

- أرأيت يا شيتو لا يضحك إلا في السخرية منَّا؟! ونحن أعظم العشائر السبع..

توجه لجناحه، تبع ساهر شيتو إلى المطبخ لتناول طعامه المفضل؛ شرائح اللحم النيئ المُتبَّل.

***

في جناحه ذي الحوائط المخملية، تمدد على سريره العائم في بحيرة صغيرة من الزئبق، صُنع له خصيصَى للتغلب على حالات أرقه المستمرة التي حار فيها أطباء إبليس.

تأرجح السرير يهدهده حين يتقلب، عكس الزئبق لون السقف، ناشرًا ضوءًا أخضرَ خافتًا، ظهر طيف أمه، مرت بأصابعها برقة على رأسه وشعره، اعتدل متلهفًا:

- أين أنت؟ خاصمني طيفك، أشتاقك يا أمي، كم أحتاجك.

ردت بصوت رائق حنون:

- سنلتقي يومًا ما، ستأتي إليَّ.
- سأموت؟
- ستنتقل إلى الرحب والأمان.

دفع ساهر الباب فجأة، اختفى الطيف، انقض عليه أيهم؛ لكمه في أسنانه.

***

حمدتْ "ثريا" اللهَ، ستر نقابُها تورمَ عيونها واحمرار وجهها؛ إثر دموعها المنهمرة كسيل جارف، سارت مشدودة الجسم متصلبة الأكتاف، لم تغير مشيتها تلك، منذ استبدالها "التنورة الطويلة" بالعباءة وخمار واسع، طال ركبتها لتتأكد من ستر جميع مفاتنها لتنجو من عذاب القبر والآخرة؛ كما سمعت من داعية في أحد دروسه؛ على إسطوانة مدمجة أحضرها لها أخوها لإقناعها بارتداء النقاب والملابس السوداء وعدم سماع الأغاني و.. و ..

تأكَّدَت من عقد زوجها أحمد قرانه بأخرى، تذكرت وسط شهقات بكائها سألته:

- لماذا؟ أفعل ما بوسعي لإسعادك وتلبية طلباتك ورعاية أولادنا.
- لم أخطئ، من حقي مثنى وثلاث و..

قاطعته:

- مثنى وثلاث إذا قصرت في حقوقك أو واجباتك.

فكَّ ربطة عنقه، ألقاها بعيدًا:

- قصرتِ، ونصحتك كثيرًا؛ أريد أنثى.

شدت شريط شعرها، انسدل كستار حريري أسود، صرخت:

- ألست أنثى؟

أشار لها ممتعضًا:

- الغباء بعينه، لا فائدة، لم ولن تفهمي، شعرك لا يجعل منك أنثى، القط له شعر جميل، أنت تتحركين وتضحكين كإنسان آلي، تضخمين صوتك خوفًا من حُرمته حتى صار أجش، لا مرح، لا انتشاء، أتذكرين يوم ألقيت نكتة في أذنك، ثرتِ، تركتِني وحيدًا في الفراش.

تلفت حوله، خفض صوته:

- علاقتنا الحميمة كالتمارين في طابور المدرسة الصباحي؛ خطوات ثابتة متتالية، لا تغيير، الابتكار كفر، أجامع قالبًا من الأسمنت.. كفى..

علا نشيجها:

- ألا تخجل؟!

ضحك باستهزاء، ألقى برأسه على ظهر كرسيه:

- أكملي قصيدة الإذلال.. كن كأخي المتصوِّف، أنت مقصِّر في العبادة، لا تصوم الاثنين والخميس كالشيخ عبيد جارنا، لا بد أن تنتظم في قيام الليل..

علا صوته، صحا الأطفال من النوم، أشار إليهم بالرجوع إلى غرفتهم:

- اختنقتُ، كرهت مجالستك أو حوارك، منهما لله؛ أمك وأخوكِ حوَّلاكِ إلى مسخٍ أنثوي.

- لست مسخًا، أنا سيدة محترمة، الكل يقدرني، أم تريد عاهرة؟!

- كنت.. كنت أريدك زوجة، لكنها الآن تكفيني، ضحكتها ناعمة، صوتها حنون، تشعرني أني..

أيقظها من شتاتها صوت بوق سيارة كادت تصدمها، لم تلتفت لصراخ السائق، أكملت طريقها بخطواتها المنتظمة.

ترحمت على أمِّها وأبيها وهي تدق جرس الباب، استغفرت الله من صوت نقر أشبه بالطبل وصل لسمعها، حدثت نفسها: "لا بد من تصرف صارم معه، لن يرضى أخي بما حدث."

لم تتلقَّ ردًّا، دقته ثانيًا، سمعت صوت أخيها.

- من؟

- أنا.. افتح يا عبد الله.

همهمة، حوار هامس، أخيرًا؛ فتح الباب مرتبكًا محمرَّ الوجنتين وهو يكمل ارتداء جلبابه، توارت عروسه كوثر خلفه، أطلقت ضحكة ناعمة، ظهرت لها، قبلتها، نظرت إلى زوجها، حدثته بدلال:

- لماذا أختبئ؟ إنها ثريا.

تأملت قميص نومها اللامع العاري، وشال أخيها الذي يضعه على رأسه عند الصلوات مربوطًا حول خصرها، بلا سلام على أحد ألقت بنفسها منهارة على أقرب كرسي، بكاؤها وصل حدَّ الصراخ.

سألتْ أخاها بلهجة حادة:

- أليس الطبل حرامًا؟ والرقص حرامًا؟ صفعتني يوم رقصت في حجرتي على أنغام عرس الجيران؟

تلجلج عبد الله:

- كانت الأغاني خارجة عن الأدب، بصوت امرأة، أما الآن فأمر عادي لزوجة تُسعد زوجها، والنقر على المنضدة كالنقر على الدف حلال، ثم ما الذي أتى بك الآن؟

ابتلعت ريقها، أخبرته بما فعله أحمد، بادرها:

- لا بد أنك أخطأت في أمر ما، أخبريني بما فعلت.

- أقسم ما فعلت إلا ما علَّمتموني، أتقِي الله فيه وأرعى الأبناء، البيت مرتب والطعام في مواعيده.

مسح على لحيته الطويلة، تنهَّد:

- لا بد وأنك قصرتِ في العبادات، سمحتِ للشيطان أن يسكن بيتك، فالبيت الذي..

قاطعته بعصبية:

- البيت الذي لا يقرأ فيه القرآن يسكنه الشيطان، أقرأ القرآن وأتلو سورة البقرة كل ثلاثة أيام.

تنهد عبد الله ثانية، رفع صوته كالواقف على منبر:

- لا بد وأنك قصرتِ في حقوقه.

أشار بإصبعه محذرًا:

- أيما امرأة باتت وزوجها غير راضٍ عنها لعنتها الملائكة.. خافي الله في زوجك و..

- كفى، أحفظ تلك الأحاديث كلها، لم أرفض طلبًا واحدًا له، قال إني كالحجر لا أُشبع رغباته، إنه..

استجمعت كل جرأتها:

- يريد فتاة ليل.

ثار عبد الله لجرأتها:

- ماذا تقولين؟! ما هذه الجرأة؟! كيف تحدثينني في شأن خاص؟

صرخت:

- لمن أشكو مصيبتي؟ ماتت أمي، لا أخت لي، لم أعد صغيرة بعد.

بادلها الصراخ:

- حدثي كوثر زوجتي وهي تنقل لي، لا تتخلي عن حيائك مهما حدث، غيري من نفسك وطبعك الجافِّ لتصلحي العطب، ثم ماذا تريدينِ أن أفعل له؟ كيف أتدخل وهو لم يرتكب ذنبًا؟ مثنى وثلاث..

تابعت هستيريتها:

- أحفظ، أقسم أني أحفظ عن ظهر قلب تلك الآية التي تتلون نصفها فقط. صنعتَ مني هذا الحجر كما يسميني أحمد، ثم تجلس الآن وتدق لزوجتك كي ترقص!

هوى بصفعة قوية على وجهها أطاحت بها بعيدًا، صرخت كوثر، أسرعت لمساعدتها في النهوض، ربتت عليها، أكمل عبد الله صراخه:

- ألم تقرأي في كتاب العروس أن المرأة تؤجر على الرقص لزوجها؟ من أنت لتعلميني الحلال من الحرام؟! أنا أعلى منك وأعلم، ولا تكرري قلة ذوقك في الحضور وقت القيلولة، كان عليك الانتظار حتى المساء.

هتفت كوثر:

- عيب عليك يا عبد الله! ماذا تقول؟!
- اصمتي يا كوثر، إنه شأن بيني وبين أختي.

صفقت ثريا الباب خلفها، هبطت السلم مسرعة، هرولت وسط الطريق غير عابئة بأصوات مكابح السيارات، ولا شتم السائقين؛ خوفًا من الاصطدام بها.

*****

الفصل الثالث

اجتماع الغروب

دخل شيتو حاملًا ملابس الحفل وزينته، تمتم بكلمات اعتاد أيهم سماعها منه، ولم يفهمها أبدًا، عاد ساهر، سأله:

- بماذا تتمتم أيها المسن؟ أهي تعاويذ عشيرتك السَفَلة؟

دق أيهم على رأس صديقه بقوة:

- بل أنت السافل وشياطينك كلهم.

ملأ الرعب عيني ساهر، وضع يده على فم أيهم:

- اصمت، جواسيس إبليس العظيم حولك دائمًا.

ابتسم شيتو، ردَّ بهدوء:

- لا يستطيعون الاقتراب الآن.

لوى ساهر شفتيه:

- من أين أتيت بكل هذه الثقة؟

نظر شيتو إلى ساهر محتقرًا، دون رد، انتبه أيهم من شروده:

- صحيح يا شيتو كلما تمتمت بهذه التعاويذ، هرب الجميع مرتبكًا، حتى الجواسيس منهم.

نظر إلى ساهر ضاحكًا:

- وأنت أيضًا، تكاد تبلل ملابسك.

ارتبك شيتو، راقب ساهرًا من طرفٍ خفي:

- إنها تعاويذ سرية خاصة بعشيرتي، كف يا سيدي عن شتم الشياطين، ولا تغضب عمك الملك.

وافقه ساهر:

- لأول مرة تنطق بالحق أيها المُعمَّر.

ثم وجه كلامه لأيهم:

- كفاك غباء وإغضابًا لعمك.
- أقسم أن لا مخلوق أغبى من عمي إبليس.

صرخ ساهر، ارتعد وقفز خارجًا من الحجرة عَدْوًا، أكمل أيهم حديثه:

- صدقني يا شيتو لا أغبى منه، غاضب حانق، يعشق أمورًا مقززة، كرهته منذ رأيته في صغري؛ يشرب دماء بشري مقتول، لم أرَ أبي يفعل مثل فعله أبدًا.

- أبوك الوزير الأعلى كان مثله، لكنه من أجل أمك أقلع عن شرب الدم، الحب يا مولاي يجعل من الشيطان جنيًّا طيبًا.

عاوده شعور الحنين:

- أتمنى أن أحب، أريد حبيبة مثل أمي حتى لو كانت من الجن الضعيف.

تنحنح معتذرًا:

- آسف يا شيتو لا أقصد إهانتك، تعلم أننا لا نتزوج منكم، لكني مثل أبي إذا أصاب الحب قلبي فلن أباليَ بقوانين إبليس، ألن تخبرني كيف ماتت أمي؟

امتطى الحزن عيني شيتو:

- مرضت وماتت..

- أراها دائمًا.. صدقني أكون مستيقظًا.. أرى طيفها يناديني إلى مكان بعيد غير عالمنا هذا.. أرى به حدائق خضراء ذات أشجار وفاكهة وشلالات أنهار أعظم مما في عالم البشر، ألمح أطياف الملائكة.

أخفى شيتو سعادته برؤية أيهم:

- لا بد أنه حلم، تزوج يا مولاي.. وسوف تنشغل و..

- أظن حياتي قصيرة كأبي، لن أفنيها مع عروس لا أحبها، لها رائحة عمي.. أريد.. أريد رائحة أمي، أنت أيضًا ليست لك رائحة عمي.

تشاغل شيتو، لم يرد، انتهى أيهم من لبس زينته من الفضة والأحجار الكريمة.

- يا مولاي، ارتدِ حَلْيَ أبيك الذهبية، إبليس يغضب لزينتك الفضية.

- أكره الذهب يا شيتو؛ يصيبني بالحكة، ليغضبْ إبليس كما يشاء، فهو لا يشعر بألمي، ثم ما الذي يهمه من زينتي ذهبية كانت أم فضية؟!

- الذهب محبَّب إليه.

- أنا أحب الفضة ما لي ولذهب إبليس، أنا حر.

بدت مخاوف شيتو واضحة في عينيه، ناوله زجاجة العطر، رشَّ منها زخات على وجهه وملابسه، أغمض الخادم عينيه متمتعًا برائحته الزكية.

***

تنفيذًا لأوامر الملك بعد رسالة شفهية حملها إليه خادمه طائع، توجه إلى الاجتماع في موكب مهيب، يلتف حوله، بتشكيل منظم، لحمايته من الأعداء. طاروا بسرعة واحدة، يتقدمهم مارد أسود، حمل صولجان والده الذهبي المرصع بالزمرد، طرفه على شكل قرون إبليس، من حجر عقيق أسود، أعلام سوداء ملطخة بالدماء ترفرف محمولة على أكتاف مردة شياطين حمر ضخام غلاظ أشداء.

وصل الموكب فوق أعمق نقطة في المحيط؛ نُصِب عرش إبليس على سطح مائها، حط الموكب، مع ميل الشمس إلى المغيب، تأمل لونها البرتقالي، راقبه المردة في تعجب، انتبه لخطئه، صرخ فيهم.

- ما لكم لا تسجدون؟

أشار إلى الشمس:

- تتعجبون لأنني أوقرها، هي من إبليس العظيم، نار ونحن نار.

خر المردة ساجدين، أمرهم بالنهوض، حط موكب عمه سقيم وابنيه نائل وقسورة بالقرب منه، تجلى الغضب على وجوههم، انحنى أمام عمه انحناءة بسيطة:

- لا تنحنِ أيها الوزير الأعلى.
- مرحبًا عمي، لم أتقلد المنصب بعد.
- ولِمَ الموكب والصولجان؟ سيغضب إبليس.
- إنها أوامر عمي الملك العظيم.

حيَّا أيهم ابني عمه بإيماءة من رأسه، ثبَّت ابتسامة سمجة على شفتيه للرد على نظراتهم الحانقة، وصل إلى سمعهم صوت نفير ودقات طبول موكب إبليس، صُمَّت الآذان، أرجفت القلوب، ثارت أمواج المحيط.

جلست زوجة إبليس بجانبه، شُقَّت عيناها طوليًا، شعرها ناري كثيف طويل، ممتد خلفها لأمتار، حملته الجواري مع ذيل ثوبها الأسود، ارتدت تاجًا يرسل شذرات كالبرق، حَفَّ الموكب على الجانبين أبناء إبليس وبناته اللواتي كن على شاكلة أمهن، أعمت أضواء زينتهن العيون.

امتد الموكب إلى أبعد مدى لبصرهم، تقدمته الأعلام؛ سبقها أضخم صولجان ذهبي في ممالك الجن والشياطين، حمله مردة حُمر أشداء، حرَّاسُه بين طائر وغواص ومحارب، سار خلفه عن يمين الموكب ويساره عربات محملة بالجنيات الجواري والهدايا الذهبية لمن يرضى إبليس عن عمله من وسوسة وغواية، انحنت العشيرة والأقربون لإبليس عند مرور الموكب أمامهم، سجد باقي الشياطين، تقدم أمين سر إبليس إلى أيهم منحنيًا.

- مولاي إبليس العظيم يطلبك.

سار أمامه متعمدًا إظهار العظمة، وصل إلى ممشى ممرَّد كأنه زجاج، يظهر الأمواج من تحته، ممتد حتى العرش ذي الخلفية البراقة، يعلو فوق درجات قليلة من مرمر أبيض رائق مسروق من قصر بلقيس المدفون في قلب الصحراء، اعتلاها إبليس إلى عرشه، مرتديًا ثوبًا طويل الذيل، مد بجانبه وأمامه، موشًّى بمآقي أطفال القرابين الملونة، مرتديًا تاجًا عظيمًا من الذهب والعقيق الأحمر، رصت العظام والجماجم الآدمية أسفل قدمي إبليس ذات الأظافر الطويلة المتسخة بدماء متجمدة زنخه، انحنى أمامه:

- مولاي إبليس العظيم، أراك في ملكٍ لا يضاهيه ملك آخر.

ابتسم إبليس، أمره بالجلوس.

- أمرتك بالحضور لأتحدث معك قبل الاجتماع، أريدك أن تتفوق على شباب الشياطين جميعًا وتنسى كل خيباتك السابقة، أريد أن أقلدك التاج الإبليسي يوميًّا في اجتماع الغروب، لا أتحمل وجود شيطان لا ينتقم لي ممن يؤمن برب آدم من إنس أو جان، فما بالك بابن أخي المقرب إلى قلبي، ذكاؤك عالٍ، لكن أين إنجازاتك؟

رماه بنظرة غاضبة:

- أين حَلْيُ أبيك الذهبية بدلًا من زينة الخدم تلك التي ترتديها؟

أدار أيهم دفة الحديث:

- درست حال بني آدم وتوصلت إلى أفضل طرق الوسوسة لـ...

قاطعه إبليس غاضبًا:

- ابن أخي لا يحتاج للدراسة لتنفيذ مخططاتي لهذا الكون، لن أسمح أن تؤثر جينات عائلة أمك على عقليتك وأدائك، فلا ذكاء ولا حنكة تحت السماء أعلى مما أملك، موتك أهون، أن أُعيَّر بك كما عُيِّرْنا من كل الشياطين بحب أبيك لأمك، لا أدينك إنما أدين أباك الذي تزوجها رغمًا عني، أخي أنا تزوج من الجن الكافر بي، لن أدعك تلقى مصير أبيك، لا بد أن تجتاز الاختبارات مع بني آدم المؤمنين

بغيري، حتى تتولى منصبك.

لمح أيهم طيف أمه تمر بينه وبين إبليس، نظرت إليه بشوق، لمعت دمعة في عينه، رأى إبليس الطيف، ارتبك للحظة، غضب وانطلق الشرر من عينيه بعد أن لاحظ الدموع في عين ابن أخيه، انحنى الحرس، سجدت الجواري والعبيد، علا صوته:

- لا أريد رؤية دموع الضعف تلك مرة أخرى، دعها لعشيرة أمك أو بني آدم المخابيل، سأتابع عملك، من هذه اللحظة أنت مسؤول عن غواية عدد من بني آدم ممن يسمونهم أولي العزم، فشل كثير من الشياطين الأغبياء معهم، رشحتك لهذه المهمة، لا بد أنك تملك بعضًا من صفاتي أنا؛ ذكاء وعبقرية، سيكون نجاحك فيها المسوغ لتوليك منصب أبيك، وأقسم بملكي وقدرتي لأقتلنك إن فشلت؛ لتكون عبرة لكل شياطين وعفاريت العشيرة.

ارتعد جسد أيهم لقسم إبليس، انحنى أمامه:

- أمرك مولاي.

أشار إبليس إلى أمين سرِّه، بدأ الاجتماع.

دخلت شياطين العشيرة أولًا، تبعتهم القبائل بترتيب قوة مراكزهم، ترنَّمت الحشود تتغنى بعظمة إبليس في تراتيل شيطانية رهيبة؛ كلما ذُكِر اسمه زاد لهيب النار قوة وارتفاعًا، وصارت أمواج المحيط كالجبال.

استمع إبليس إلى أعمال الشياطين والمردة في يومهم، حكم بينهم؛ مَن أكثرهم شرًّا وغواية للبشر، فاز شيطان وسوس لرجل طلق زوجته ثم قتلها، ربت إبليس على الفائز فخورًا:

- أنت أنت عفريت الشياطين.

وجه حديثه للحشد:

- عفريتنا لم يكْفِه الطلاق، إنما وسوس له حتى ذبحها، أحبوه فإني أحبه.

سجد الفائز عند قدميه:

- بل وأتيتك بكأس من دمها.

صرخ إبليس فرحًا، رفع الكأس أمام الجمع، هلل أبناؤه من حوله تبعهم الشياطين، انتابتهم حالة من الهياج والصراخ، تجرع كأس الدم دفعة واحدة، عم الظلام فجأة من حولهم، ازدادت قوة الرياح المحملة بالغبار، مصدرة صوتًا عاليًا، أصمَّ آذان البشر على الشاطئ، قلد الفائزَ بالتاج الإبليسي المرصَّع بالياقوت الأحمر المنحوت على هيئة عينيه.

نظر إلى أيهم متوعدًا، ما زال الدم على شفتيه، حنى رأسه دلالة على فهم مقصد الملك.

*****

الفصل الرابع

أول يوم عمل

دخل أيهم حجرته، باغت ساهرًا وقذف الوسادة في وجهه، صرخ فزعًا، تناثر ريش النعام في كل جوانب الغرفة، أتى شيتو مسرعًا:

- ماذا حدث؟

ضحك أيهم وأشار إلى ساهر:

- لا تنزعج يا شيتو، إنه الجبان.

- لست بجبان، أفزعتني، ظننتك نائمًا، أتيتك أرتعد خوفًا لتكمل أنت نهايتي.

- ممَ ترتعد يا جبان؟

التقط شيتو أنفاسه:

- رسول إبليس العظيم بالباب، يستأذن في الدخول عليك، وساهر هو من استقبله..

ثم وجَّه حديثه إلى ساهر:

- جبان.

- أي شيطان سيرتعد أمام رسول إبليس.

- أي شيطان جبان مثلك.

مد شيتو يده بالعباءة:

- مولاي دعك منه، وهيَّا لمقابلة الضيف.

رد باستعلاء:

- دعك من الضيف هو رسول إبليس؛ وأنا الوزير الأعلى ابن الوزير الأعلى، اتركه ليعتاد الوقوف ببابي، واشرح لماذا فزعت لصرخة ذلك الجبان.

- خشيت إصابتك بمكروه، أنا لا أنام يا مولاي منذ قرر إبليس العظيم تنصيبك مكان أبيك الوزير الأعلى، أعداؤك كثر يا مولاي.

ضحك أيهم:

- لا تخشَهم، ذكاؤهم من ذكاء ساهر، هيَّا أَدخِل الرسول.

- هنا يا مولاي؟!

- نعم هنا، ليرى غرفة نومي، ويخبره أنها أفضل من غرفة إبليس نفسه.

تلفت شيتو حوله:

- مولاي ارحمني من جرأتك، لو علم ما تقول لسحقنا.

صرخ ساهر:

- يسحقنا جميعًا؟ يا ويلي!

ضحك أيهم:

- سأبلغ إبليس خصيصَى لينثر رمادك المسحوق على بركان القرابين، ليثور ويقذف حِمَمه من جديد.

ارتبك الرسول بمجرد دخوله الغرفة، لفخامتها وجمالها، نسي الانحناء لأيهم؛ نهره بشدة، انحنى طويلًا طالبًا العفو والسماح، استعطفه لعدم الإبلاغ عن خطئه، وعده أيهم بذلك ما دام منصاعًا لأوامره، ناوله الشريحة الخاصة بعمله وانصرف، قفز شيتو فرحًا:

- يا لذكائك يا مولاي!
- قلت لك لا تقلق بشأني.
- سأعترف لك بما يقلقني، رأيت جنًّا من جواسيس ابن عمك نائل، فهو يستخدم جواسيس الملك الأزرق عدونا بدون علم إبليس العظيم، احذرهم يا مولاي، فالغيرة قد نهشتهم، أرجو زيادة حرسك الخاص، ابعث للملك الأسود ليرسل إليك أفضل جن مدرب في قبيلته لحراستك كما كان مع أبيك، يا مولاي أنا جني عجوز وأدرى منك بهؤلاء الحاقدين.

ربَّت أيهم على شيتو:

- لأجلك فقط سأنفذ كل ما قلته ليهدأ قلبك العجوز.

دمعت عينا شيتو:

- أنت قطعة من أمك شكلًا وحنانًا.

- وأبي؟

طأطأ رأسه، عند ذكر الوزير الأب:

- أنت قوة أبيك ودهاؤه، لكن روح أمك تمنعك من أن تكون مثله في بطشه وقسوته.

تلفَّت ساهر خائفًا موجهًا كلامه لشيتو:

- ماذا تقول أيها المخرِّف، إن أباه أخو إبليس العظيم.

ضحك أيهم:

- أما زلت هنا أيها الجبان؟

- نعم نعم، أنا جبان لا تسبوا إبليس العظيم أمامي، إذا سمعنا جواسيسه سأكون أنا الضحية، فأنت ابن أخيه

أشار إلى شيتو:

- وأنت عبد مسن؛ قد لا يراك إبليس ليقتلك.

لكمَه أيهم:

- اخرس أيها المترهِّل الجبان، شيتو ليس عبدًا وأنت تعلم ذلك، وإن ذكرت هذه الكلمة ثانية سألقيك في سجن سليمان أو للحية العظيمة في كهف برهوت.

- بل سأنصرف ولتقولا ما تريدان.

خرج مسرعًا، تابعه شيتو حتى اختفى من أمام ناظريه:

- هو محق يا مولاي، يجب ألا...
- ألن تخبرني كيف ماتت أمي؟

ارتبك شيتو:

- يا مولاي قد أخبرتك من قبل؛ مرضت وماتت، لمَ لا تصدقني؟
- ما أراه في عيون الجن جميعًا عندما تأتي سيرة أمي.
- ما تراه في عيونهم خوفهم من إبليس لأنه يكره قبيلة أمك، ولا يحب ذكرهم.
- لماذا يكرههم يا شيتو؟ ألأنهم مؤمنون بغيره؟ أم لأنهم ...؟
- مولاي أنا مجرد خادم لا أعلم ما بين الكبار، ولا يصح أن تشغل بالك بما مضى وأمامك الكثير من المصاعب والتحديات، يجب أن يكون ذهنك صافيًا، بالإضافة إلى أن توليك هذا المنصب سيعطيك أكبر فرصة لمعرفة ما تريد.

هز رأسه موافقًا، أمره بالانصراف، ضغط على شريحة بين يديه، ظهرت مجسمات للآدميين المطلوبين ومعلومات عنهم.

***

وصلت ثريا إلى بيتها، دخلت غرفتها، ألقت بنفسها على السرير باكية، شاركها الأبناء البكاء، أشفقت عليهم، جففت دموعها، جاهدت لإسكاتهم:

- أنا بخير أحبائي، فقط رأيت مشهدًا أبكاني، هيا لأعد لكم طعامًا، سأعد لكم طعامًا خفيفًا، وغدًا سيكون هناك طعام لذيذ ينتظركم بعد رجوعكم من المدرسة.

حدثت نفسها: "أنا المخطئة أم أنتم؟ أنا صَنْعَتكُم.. أطعت بعمى وغباء؛ لنيل ثنائكم، لم أرَ فرقًا بين أوامر الله وأوامركم، ما تأمرون به مطاع كالقرآن العظيم، لا فرق.. لا يا ثريا، لست عمياء فقط، بل صماء خرساء، بلا رأي أو فكر، محوتم إرادتي وعقلي، بل محوتموني كليًّا".

احذري الخطيئة.. المعصية.. النار.. عذاب القبر.. الثعبان الأقرع.. حاسبتموني حتى على أحلامي.. الحلم بقبلة من رجل لا أعرفه خطأ مني.. لماذا؟

لا بد أنك مقصرة في العبادة.. لا بد أنك لم تحسني الوضوء قبل النوم.. لا بد أنك نظرت لرجل ما في الطريق، سيأكل الدود عينيك الزانية.. ستُعلَّقين من رموش عينيك يوم القيامة.. لن يغفر الله لك.. فالعين تزني، اخفضي صوتك، لا تشاركي في أحاديث الكبار فأنت صغيرة.. لا تلعبي مع الأطفال فأنت كبيرة.. لا تفعلي.. لا تفعلي.. حرام.

ما هذا الشعر على جبينك؟ إنها خلاعة.. لماذا أنا بالبيت لا أحد يراني؟! اصمتي..

ما هذا الطلاء على أظافرك؟

إنني في فترة التوقف عن الصلاة..

اخرسي؛ لا بد من الوضوء قبل النوم حتى في فترات التوقف عن الصلاة، لا تتشبهي بالراقصات، مشيتك خليعة..

أنا؟ أبدًا لا أقصد..

امشي مشدودة واختاري ملابس فضفاضة كأي امرأة محترمة..

لكنني بالمنزل ألبس ما يحلو لي..

ميوعة.. هل ستعلمين أطفالك الميوعة؟ احترمي نفسك، الحياة الحقيقية في الآخرة، الدنيا لعب ولهو ..

أفاقت من مر ذكرياتها على صوت نداء ابنتها:

- أمي، الطعام سيحترق.

انتبهت، حملت الإناء بعيدًا عن النار، وضعت الطعام أمام أبنائها.

- سنأكل وحدنا؟
- سبقتكم وأكلت، بالهناء والشفاء.

عاودت حديث نفسها: "أنت أيضًا اخترت الميوعة يا عبد الله، فعلت ما نهيتني عنه؛ المسخرة أصبحت حلالًا الآن وتُثاب عليها المرأة!"

خلاعة أم حب ودلال.. محق يا أحمد.. أنا صنم، أخجل من كلمة نابية منك؛ أتبعها بدرس من دروس الحياء.. لماذا وافقت يا أمي؟! لماذا تركتِني إلى قسوة عبد الله؟ ملابس نومي بنصف كم يا أمي! أين ملابس نومي من ملابس كوثر؟! لا تسمحي لزوجك بإضاءة النور، الحياء.. الحياء؛ الأمر كله يتم في الظلام، هل أضاء عبد الله النور يا أمي أم تمَّم نشوته في الظلام؟!

حملت الأطباق إلى المطبخ، خالفت أوامر أمها لأول مرة، ألقت بالأطباق من يدها؛ تركتها في الحوض دون غسيل، اطمأنت لغلق النوافذ جيدًا، شعرت بالخوف، نادرًا ما تركهم زوجها للمبيت وحدهم، كانت أمها تأتي للمبيت معها.

أمسكت المحمول الخاص بها، فتحت الصفحة الخاصة بالشيخ الشهير، أمرها أخوها بمتابعة أحاديثه فقط دون الباقين، ترددت في كتابة استفسار عن حلٍّ لمصابها، استجمعت شجاعتها؛ أرسلت ما كتبته بدموعها، سريعًا وصلها الرد كإعصار، اكتسح كل ما بقي لها من إيمان بأوامر أخيها ونواهيه، اقتلع رده كل ما بقي لها من أمل في كلمة حانية ممن تتعامل معهم، اتحدت شتائم الشيخ لرفضها ما حلله الله من زواج زوجها بأخريات، مع صفعة أخيها وطرده إياها، محا ذلك ما بقي لها من اتزان.

هاتفت زوجها، طالبة حضوره بسرعة لمرض أحد الأولاد، ما إن دخل من الباب حتى حدثته برغبتها في التحاور معه، علا صوته وسط ذهوله:

- إنه جنون حقًّا، جعلتني أقود السيارة بهذه السرعة لنتحاور؟

أشار لها محذرًا:

- احفظي كلماتي جيدًا، هنا يوم وهناك يوم، هي زوجتي مثلك تمامًا، ولها مثل حقوقك، لا تهاتفيني إلا لأمر جلل، أظن اتضح الأمر.

ألقى عليها السلام وهو يوليها ظهره لينصرف، أمسكت بيده متوسلة:

- انتظر من فضلك، قلبي منفطر أنت تعلم حبي لك واحترامي.

تنهد بضيق، جلس واضعًا ساقًا على الأخرى:

- لخصي القول، زوجتي تنتظرني.

جُنَّ جنون ثريا لجملته الأخيرة:

- عيب عليك، احترم مشاعري، أنا زوجتك.

- وهي أيضًا زوجتي، وتحملت ذِكري لك أمامها، بل نصحتني باحتمالك واحتمال طباعك الجافة، وتشير عليّ بما أفعله معكِ لتستمر حياتنا من أجل الأطفال.

صرخت ثريا غير مصدقة:

- شكوت مني لها، أنت مجنون!

- بل كنت مجنونًا أن احتملتك كل تلك السنين، وانتبهي لكلامك لن أسمح لك بخطأ آخر.

بُحّ صوتها:

- بل سأقول ما أريده، كيف تشكوني إليها؟

- كما كنتِ تشكينني لكل من بصفحة شيخك الكريم، وطلبك منهم الدعاء لي لأنني غير ملتزم.

- كنت أريد لك الخير.

هم بالانصراف:

- أنا أيضًا أريد لك الخير لأنني لو لم أشكُ لها كنت سأموت غيظًا أو أقتلك، وعمومًا هي ليست زوجة فقط بل صديقة أيضًا، طال الحوار والوقت تأخر نكمل غدًا.

جذبته من قميصه بشدة، صرخت:

- لا تتركني..

انقطعت عروة القميص، جن جنونه، دفعها فوقعت أرضًا، قامت مسرعة أنشبت أظافرها في رقبته، تألم، قبض على يدها، صفعها بقوة:

- كفى جنونًا، تحملتك بما يكفي.

صرخت:

- أنت المجنون.

- احترمي نفسك واخفضي صوتك.
- لن أخفض صوتي، ليعلم الجميع أنك فارغ العين تهوى النساء.
- اخرسي.
- لن أسكت حتى تطلقها وتعود إلى رشدك.
- لن يحدث.
- إذن طلقني أنا.
- دعينا نكمل تربية أطفالنا.
- تعني أنك تعيش معي من أجلهم.

لم يرد، دخل لتغيير قميصه، دخلت خلفه، جذبته من قميصه ثانية:

- أجبني، تعيش معي من أجلهم.
- لا تجذبيني ثانية وإلا ستنالين ما لا يرضيكِ.
- لن أسمح لك بضربي ثانية.
- إذن احترمي نفسك وابتعدي الآن.

ابتسم بشماتة:

- احفظي كرامتك، هذا يومها.

ازداد هياجها وصراخها:

- لدي كل الكرامة يا قليل الكرامة.

صفعها ثانيًا وثالثًا وهي مستمرة في شتمه والصراخ، استيقظ الأطفال وشاركوها الصراخ، دق الجيران جرس الشقة طالبوه بفتح الباب وإلا سيبلغون الشرطة، أنشبت أظافرها في أكتافه، دفعها سريعًا لطمأنة صغاره. فتح الباب، وهو يلاحق أنفاسه:

- لا شيء، لا شيء، مجرد خلاف بيني وبين زوجتي.

خرجت ثريا للجيران مكشوفة الوجه والرأس:

- كلا، يضربني من أجل امرأة أخرى.

دفعها للداخل:

- قلت لك اخرسي، كفاك فضائح.

توجه بالكلام إلى جيرانه وسط ذهولهم:

- إنها زوجتي، زوجتي والله.
- خطفتك تلك العاهرة.

عاد لضربها، ردت ضرباته بمثلها، فشلت محاولات الجيران للتفريق بينهما، آلمته قبضتها في أنفه، سال الدم منها، عاجلها بقبضة مثلها؛ أتبعها بسب دينها ودين كل عائلتها.

صرخت فيه متألمة:

- تسب الدين! طلقني يا كافر.

صرخ:

- أنتِ طالق، طالق.

ساد السكون فجأة، الجميع في ذهول، صرخت ثريا، سقطت على الأرض، هرعت إحدى الجارات للحيلولة دون ارتطام رأسها بالأرض، ارتمى أحمد على أقرب كرسي، حمل أصغر أطفاله لإسكاته من البكاء، والكبيران من حوله يبكيان، حملت جارتان زوجته إلى سريرها.

في جانب الغرفة وقف أيهم بجانب الباب مبتسمًا فخورًا، أشار إلى ساهر بانتهاء المهمة.

*****

الفصل الخامس

حفل التتويج

تعالى صوت النفير معلنًا عن وصول أيهم في عرش طائر، أحاطته كتيبة من المردة الحراس من قبيلة الأسود، يفوقون قدرات المردة الحمر والزرق، ازدان العرش بالألماس البراق، توهم الرائي من سكان الأرض بأنه نجم أو شهاب هوى من السماء، أحاطت به الجنيات الحمر، نثرن مسحوق الذهب البراق على الموجودين في الحفل بمجرد اقتراب الموكب من صفحة الماء.

ترجل من العربة، فوجئ بممشى ذهبي وضع بدلًا من السجاد، لا يُستخدم إلا في احتفالات جلوس إبليس على العرش، زفه عدد كبير من الراقصات، ارتدين ثيابًا حريرية شفافة مثيرة ذات ألوان صاخبة براقة، تمايلن ورقصن بحركات تدربن عليها سابقًا، لإثارة الجن وإمتاعهم ولإغواء البشر، وخلفهن العبيد حملة المشاعل والثعابين الضخمة عراة يتفاخرون بضخامتهم وبما يملكونه من الحيوانات المفترسة، التي سيطروا عليها بمجرد نظرة أو تعويذة. تبعتهم قبيلة السحرة، عيونهم مخيفة غامضة، تباروا في سحرهم بإخفاء الأشياء؛ منهم من حول كلبًا إلى ذئب وأعاده ثانيًا، ومنهم من أمر فاشتعلت النيران وسط ماء المحيط.

صعد الدرجات المؤدية إلى العرش بخيلاء حيث وقف إبليس، وخلفه أبناؤه، فاتحًا ذراعيه مبتسمًا مرحبًا، عانق ابن أخيه، المأخوذ بما شاهده من عظمة الاحتفال الذي أُعِدَّ خصيصًا بأمر الملك لحظة أن أخبره الجواسيس بوقوع ثريا وزوجها في الفخ.

انحنى أمام عمه ثم التفت إلى أبنائه، حيا كل شيطان باسمه؛ ذاكرًا عظيم أعماله.

- عمي الملك الأعظم.. أبناء عمي الجبابرة.. خنزب.. شيطان وسوسة الصلاة البارع.. ثلبنور.. شيطان الأسواق الرائع.. تبر.. يا من تُخرج بني آدم عن عقلهم فيلطموا الخدود ويشقوا الصدور.. الأعور.. يا من تفتح أبواب الزنا المغلقة.

زفر مُرة زفرة ملتهبة، تجاهلها أيهم وتابع تحاياه:

- مصوت.. ابن عمي، شيطان الإشاعات، تصبُّها في فم بني آدم صبًّا.. داسم.. الآخذ بثأرنا من بني آدم، تشاركهم حياتهم وطعامهم.. ولهان.. من يصيب ابن آدم بالوساوس والتشكك في طهارتهم وصحة عبادتهم.. الأقيس.. شيطاننا العظيم من جعل بني آدم يتكاسلون ويسهون عن صلاتهم وعبادتهم.

التفت إلى مرة المستشيط، محييًا:

- ابن عمي الأكبر مُرة.. ملك المزامير واللهو.. تعمدت ذكر اسمك الأبهر في آخر حديثي، وإن كان مقامك يسمو ويعلو لكن لأنادي عمي بكنيته المحبَّبة إلى قلبه وقلب أبي الوزير الأعظم.

انحنى أيهم ثانيًا أمام عمِّه، رفع صوته:

- أحييك أبا مُرة الأعظم والد العظماء.

ابتسم إبليس وابنه، منتشيين، التفت أيهم إلى السعالي، انحنى:

- إنه لفخر يا بنات عمي السعالي الجميلات، تشريفي بحضوركن.. على الرغم من انشغالكن بغواية أعدائنا من بني آدم وهلاكهم.

استقام أيهم والتفت إلى الشياطين، رفع صوته:

- فلتسجدوا لأبي مُرة.. إبليس العظيم أبي العظماء.

سجد الجميع، علا صخبهم وهتافاتهم، أشار إبليس ليصمت الجمع الصاخب، نظر إلى أيهم مشيرًا بكلتا يديه:

- أنت.. أنت.

عاود الشياطين الصياح فرحًا، أشار إليهم ثانية، صمتوا، رفع إبليس تاجه الضخم، الذي كان على شكل أربعة أجنحة ذهبية تشير إلى الجهات الأربع، يتوسطها ياقوتة حمراء، ويزدان كل جناح باللؤلؤ الأبيض، ويحمل ياقوتة صغيرة على طرفه. ذلك التاج المغرم به نائل ابن أخيه سقيم، منذ كان يدرس في الكهنوت الإبليسي، أراد به إبليس أن يكون سببًا للوقيعة بين نائل وأيهم، ومن ثم يتبارى الاثنان في ولائهم له.

وضع التاج على رأس أيهم، انحنى لعمه مقبِّلًا طرف ثوبه، رفع إبليس يد أيهم لأعلى، أشار إليه بيده الأخرى صارخًا بصوته

الجهوري في جموع قبائل الشياطين:

- عظموه فإني أحبه.

انحنى الشياطين له محدثين صوت دمدمة مخيفة حركت رياحًا قوية حول الحفل، ساد الغيم، اختفت النجوم، صرخت النوارس في السماء، طارت هاربة، أكمل إبليس خطبة الحفل:

- اليوم انتصرت على من عاشوا حياتهم يستعيذون بربهم مني، سقطوا في يومٍ واحد بجهد قليل من وزيركم الأعلى المقبل.

أشار إلى أيهم، رفع قبضة يده لأعلى، صاح:

- أنا الأعظم، أنا ملك ملوك الأرض بلا منازع، ما أريده يكون، ومن أحبِبْه يعلُ، من يعادِني يسقطْ.

سجد الشياطين، نُثِرت القطع الذهبية على العبيد والجواري عندما علت دمدمة صلواتهم، صعد ملوك القبائل ورؤساء العشائر الدرج حيث العرش، قبَّلوا طرف ثوبه، الواحد تلو الآخر، راقبهما نائل وقسورة من بعيد؛ إنهما ناقمان..

***

ارتفعت الضحكات والصخب بين أصدقاء أيهم، وغانيات الحانة ملتفات حوله، وفي وسطهم وقفتْ آسل بجمالها الأخَّاذ، ذائبة فيه عشقًا مستندة بظهرها إلى صدره، تنظر إلى ريفال شامتة بعد أن أحاطها بذراعه، جلس مادًّا ساقيه سعيدًا بانتهاء الجزء الأهم من التحدي مع عمه، رفع يده بكأس الخمر، رفع الجميع كؤوسهم بالتحية، إلا ريفال، غادرتْ الحانة تفتك بها الغيرة، مال ساهر على أذنه:

- رأيت ابنَيْ عمك نائلًا وقسورة يراقبان الحفل من بعيد، نظراتهما تكاد تلقي بك إلى أسود إبليس في ساحة الموت.
- تعجبت من عدم حضورهما، وعلمت أن عمي غضب لذلك.
- أخشى عليك منهما يا صديقي.

وقف بينهما، جاسم صديقهما:

- فيمَ تتهامسان يا عفاريت المملكة؟ احكِ لنا كيف ضربت ثلاثة أناسي بحجر واحد، في يوم واحد يا ابن الوزير الأعلى يا محظوظ؟

بسخرية؛ وصف مشاهد الضرب والسبِّ بين ثريا وأحمد، ضحكوا حتى انقلب ساهر على الأرض، بال جاسم في ملابسه.

غمز له:

- خبيث أنت يا أيهم؛ أضحكتنا حتى بُلنا على أنفسنا، لكنك

لم تحكِ الخطة التي اتبعتها.

رد ساهر متحفزًا:

- مولاي إبليس العظيم أمر ألا نناديه إلا بالوزير الأعلى.

ابتسم أيهم ملاطفًا، أشعرهم بحبه لهما، ووعدهما بالعمل كمساعدين له حين توليه المنصب، تعالت أصواتهما فرحًا، هنأ بعضهما بعضًا، تحدث، سكت الجميع:

- **الدراسة لنفس بني آدم ودوافعه ومتطلباته هي الأساس.**

سأل جاسم في بلاهة:

- درسنا هذه المادة في الكهنوت الإبليسي، لكن ما علاقته بما فعلت؟

أكمل أيهم بفخر:

- هذا هو الفرق بيني وبينكما، سأشرح لكما لتساعداني فيما أنوي فعله، ألم تلاحظ يا ساهر كيف تحدث عبد الله مع أنه يعيب علينا الغرور؟! قال لثريا: أنا أعلى وأعلم منك؛ افتخر بعلمه وإيمانه، هذا الإنسي فشل الجميع معه؛ لأنهم حرضوه على ترك الصلاة، والإفطار في رمضان، أو ارتكاب أي معصية، هذا خطأ.. خطأ، الصواب هنا هو دفعه تجاه دينه أكثر ليصيبه الغرور مثل من يستعيذون بربهم منه..

انحنى بطريقة مسرحية:

- ألا وهو إبليس العظيم.

ضحكوا، سأله ساهر:

- ماذا عن زوج ثريا أحمد؟

- غبي أنت مثل كل بني آدم، نفس الأمر أحمد أخطأ تحت ضغط حب ذاته أكثر من دينه، أحمد سبَّ دينه؛ لأن ثريا أظهرته زيرَ نساءٍ أمام جيرانه، وما علاقة الدين بخلاف زوجين.

كمعلم في فصل دراسي، قال أيهم:

- يا أصدقائي لا تنسوا ما قلت، لا توسوسوا للآدميين بما يدخل الشك في قلوبهم تجاهنا فيرفضوا فعل ما نريده، بل أغووهم بما تهواه قلوبهم وتريده، سيفعلون أكثر مما نريد، صبوا عشق المال والسلطة في نفوسهم، بينوا لهم طريق المتعة؛ حلُّوا أيامهم، نحن الأساتذة وهم التلاميذ، صحيح أن منهم التلميذ الغبي، الذي يقتل ويذبح لأجل مال بخس، ومنهم من يتفوق على أستاذه، ويسخر عبيده لحروب تسيل فيها دماء الملايين منهم، لكنهم عباد لنا في النهاية.

أشار إلى نفسه في خيلاء، صفق أصدقاؤه، أثنوا عليه.

اقتحم حراسه مردة الأسود المكان فجأة، أحاطوا بنائل وقسورة، اتخذوا وضع الاستعداد بتضافر أذرعهم معًا. بضغط كل منهم على كتف الآخر تصدر موجات ذات تردد عالٍ كفيلة بإصابة

من يريدون إيذاءه بانفجار في رأسه، أو خرق طبلة أذنه. ساد الصمت، تعجب الأصدقاء، ارتعبت الغواني، فنائل وقسورة غير معتادين على ارتياد الحانات، وكانا ذوي قدرات عالية في القتال والبطش بمن يعترضهم، أمر حراسه بالانصراف:

- لا تُقلِقوا مردة الأسود الشجعان، إنهما ابنا عمي لن يؤذياني.

رفع كأسه إلى أعلى تحية لابنَي عمه:

- ابنيْ عمي العزيزين كنت متأكدًا من حضوركما اليوم أو غدًا لتهنئتي بانتصاري العظيم، أين كنتما وقت تتويجي، توَّجني إبليس العظيم بالتاج الإبليسي، فاتكما الاحتفال.. لا.. لا..

هزَّ رأسه بالنفي:

- لم يكن احتفالًا؛ بل كان مهرجانًا كبيرًا لم يحدث من قبل لتتويج شيطان من العشيرة، كنت أريد..

قاطعه قسورة:

- لست أول شيطان يوقع مجموعة من بني آدم في كفر بربهم، رأينا من أغوى عددًا أكبر بذنوب أعظم؛ لم تأتِ بالعجب فلا داعي لفخر كاذب.

- ولمَ لا أفخر وأفرح وقد نجحت فيما فشلتم فيه، ألم تسمع عمك وهو يقلدني التاج، وهو يقول: "إنهم من أولي العزم"، وقد حار بهم الشياطين قبلي؟ فقط وفي زيارة واحدة أسقطتهم جميعًا.

علا ضحك أصحابه، زاد غضب نائل، وضع أيهم يده على كتف

ابن عمه؛ ربت عليه:

• لم ترَ ثريا، ثريا التي لم يرَ أحد وجهها خرجت إلى الجيران مكشوفة الوجه حاسرة الرأس، لم ترَ جارها المهذَّب الغاضَّ بصره دائمًا؛ انبهر بشعرها الأسود الطويل لم يرفع عينيه عن شفتيها، لم ترَ..

دفع نائل يد أيهم عنه بعنف، بادره جاسم:

• كيف تعامله هذه المعاملة وهو الوزير الأعلى؟!

فار رأس نائل كبركان ثائر، سدد قبضة مستعرة لوجه غريمه، وقع صارخًا من الألم، منعه أيهم من أن يسدد له قبضات أخرى، صرخ نائل موجهًا كلامه للساقط أرضًا:

أيها الأخرق، تكلمني كما لو كنت منا، أنت لست من العشيرة الإبليسية، أنسيت نسبك؟! إنما أنتم مأجورون لدينا.

رد أيهم صارخًا:

• أنت من نسيت، أمه من العشيرة، بفعلك الأخرق هذا عاديت عشيرة أبيه، وهم حلفاؤنا، سيغضب عمنا لغضبتهم، الآن فهمت لماذا اختارني لخلافة أبي؛ إننا مملكة عظمى، وأنا الأذكى والأقدر.

• بل اختارك ليوقع بيننا ونتنافس لمصلحته.

لمح أيهم جواسيس الملك من بعيد:

• ليكن، تصرف ذكي، دلَّ عن فطنة ملك وفِكر رب عالم بطبائع شياطينه، علم بعدم صلاحيتك إلا كجندي قتال ذي قدرات محدودة.

اندفع قسورة، متقدًا بنار غضبه، التي جعلت حوله هالة زرقاء شديدة الحرارة، خرجت منها ألسنة اللهب، اجتهد في أن يلمس التاج الذي على رأس أيهم لينصهر ويحرقه، قابله أيهم بحركة صد سريعة مفاجئة من يده، ردت ناره مباشرة لرأسه أسقطته أرضًا فاقدًا للوعي، محروق الرأس.

علا صراخ الغواني، لسرعة الحدث، لم يفهم الجمع كيف احترق، أحاط حراس الأسود ثانية بنائل والملقى على الأرض؛ في وضع استعداد لصد أي حركة مفاجئة، ولولا أنهما ابنا الوزير سقيم، لكانا في عداد الأموات، صرخ نائل:

• ماذا فعلت أيها الغبي؟!

• اصمت وانحنِ معتذرًا وإلا أبلغت عمنا العظيم بما فعله أخوك.

• تحتمي بحراسك والملك، أين شيطنتك وقوتك أيها الوزير الأعلى؟

حمل كأسه، جلس واثقًا:

• ذاق أخوك جرعة من شيطنتي، فلا تدفعني لأكررها معك، أنتما لا تعرفان كيف كان أبي يدربني، لا بد وأنه كان ينتظر منكم

الغدر.

- لا أظنها قوة منك، لا بد أنها منحة من الملك لك.

ضحك بسخرية:

- لم يمنحني إلا التاج ذا الأجنحة.

خلع التاج عن رأسه؛ وضعه بينهما، تابع:

- والذي لن أرتديه ثانية، لا يغريني ذهبكم الذي تموتون من أجل امتلاكه، فهو ليس حلمي، ها هو التاج أمامك.. ارتدِه، وانظر لنفسك، ستضحك المملكة كلها منك، الكل يعلم أنك لم تفعل ما يرفعك لمقامه، هو الأكبر، بعد تاج ملكنا العظيم.

أشار إلى التاج:

- خذه إن استطعت.
- تقلدت المئات من تيجان إبليس.
- لكنه التاج الإبليسي، حلمك القديم، اعلم يا ابن عمي أنك لن تناله أبدًا؛ فلست في ذكائي ولا قدراتي.
- غرورك قاتلك، سأناله هو نفسه بعدما تُحرم منه لسوء أفعالك، سترى.

تحداه:

- ولِمَ الانتظار، أعطيه أنا لك إن أثبتَّ أنك أجدر مني بحمله.

أفاق أخوه من صعقته، قام محاولًا إعادة الكرة، منعه نائل من اندفاعه، ابتسم لهما:

- ما قولكما؛ أأنتما أجدر مني بحمله؟
- بالتأكيد، ليكن التحدي على ثريا.
- سقطت ثريا وانتهى أمرها ماذا تريد أكثر من وصفها لغريمتها بالعاهرة، أمر يغضب ربهم بشدة؟ لن تتوقف أخطاؤها بعد الآن؛ فهي غاضبة، وكَّلت أحد المتدربين لمتابعتها، فالأمر هين.

ازدادت الهالة النارية الزرقاء حول نائل:

- سأخبرك به لاحقًا.

وضع الكأس بهدوء:

- اتفاق، أمام الجميع هنا؛ إن لم أنجح فالتاج لك.

رفع أيهم كأس خمر من يد آسل، تجرعه، ألقى به أرضًا، تناثرت شظاياه أمام ابني عمه، انصرف محاطًا بحراسه وأصدقائه؛ فوجئ الجمع بحراس نائل، رؤوسهم مهشمة، تناثر ما بداخلها على الأرض.

*****

الفصل السادس

مولانا

خرجت ثريا من الجامع بعد أداء الصلاة، لم تنتظر درس الجمعة كعادتها بعد سماعها تهامس النسوة عن مأساتها، مشت مترنحة، اجتهدت كي لا تقع، لم تتوقف ذاكرتها عن العمل، علا صوت قلبها المكلوم، لم يعِرْها أخوها أي اهتمام ولم يسأل عن حالها أو ما حدث لها، بعد صفعها في بيته.

جرى طفل صغير تاركًا يد أمه؛ اصطدم بساقي ثريا من الخلف، انكفأت على وجهها، سقطت حقيبة يدها، تناثر ما بها، أسرعت أم الطفل، لملمت أغراضها، اعتذرت بشدة، أخرجت منديلًا من حقيبتها، نظفت ما على وجهها من تراب، أتت عجوز مهرولة، بسملت وحوقلت، ربتت على المصابة المتألمة بشدة، خائرة القوى، استغاثت العجوز بسيارة فارهة، يقودها شاب متوسط السن وسيم ذو لحية، تمتم بسم الله، ساعد في نقلها إلى السيارة، للذهاب إلى مستشفى قريب، تطوعت العجوز بمرافقة الرافضة الخلوة مع رجل غريب، لاحظ الشاب من خلال مرآة السيارة، غيابها عن الوعي تدريجيًّا.

أفاقت في حجرة مرتبة واسعة، منسقة الإضاءات، مزينة بالزهور، رُبط ذراعها ورأسها وركبتاها بضمادات، أصدرت آهة عالية، وَشَت بآلام قوية.

بجانبها السيدة العجوز، تمتمت بالدعاء، مسحت على رأسها، تذكرت غلظة أمها وقسوة أخيها، تساقطت الدموع من عينيها، في طرف الحجرة جلس الشاب وبجواره رجل مسن ذو لحية بيضاء، مُوَلِّيَين ظهريهما لسرير المريضة، يتحدثان بشأن بعض أعمال الخير، إطعام مساكين، ولم يلاحظا إفاقتها.

نادت العجوز:

- يا مولانا.. يا مشايخ؛ أفاقت.. أفاقت.

أسرعا إليها خافضين رؤوسهما، غاضَّيْن أبصارهما، حمد المُسِنُّ ربه:

- حمدًا لله على سلامتك يا ابنتي.
- الله يسلمك يا مولانا.

تردد الشاب ناظرًا إلى أرضية الغرفة:

- حمدًا لله على سلامتك يا أختاه، شافاكِ الله وعافاكِ، نريد يا أختي أرقام تليفونات أهلك لطمأنتهم.

تدفقت الدموع من عينيها، ربتت العجوز على كتفها، مسحت دموعها بمنديل ورقي سحبته من علبة المناديل أتى بها الشاب مسرعًا فور رؤيته دموعها.

تمتم الشيخ:

- لا إله إلا الله.. لا إله إلا الله، ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا، عافاكِ الله يا ابنتي، أزاح عنك الهم والغم.

دمعت عينا الشاب:

- أختي أنت هنا في حفظ الله وصونه، وقت ما تريدين إبلاغ أهلك نحن جميعًا رهن إشارتك، ولا تقلقي بشأن أي شيء مادي أو بشأن أي شيء من احتياجاتك.

أشار إلى العجوز:

- أمك في الله أحضرت لك ملابس لتلبسيها عند خروجك، فقد تقطعت ملابسك وقت الحادث، وأنا سأظل هنا (أشار إلى خارج الغرفة) حتى تمام شفائك.

ردت بصعوبة:

- أولادي وحدهم بالمنزل.

تحدثت العجوز:

- أخبريني بعنوانك، آتيك بهم بعد أن أطعمهم، لا تحملي همًّا.

تنازعتها الدهشة للاهتمام والحنان البالغ والخوف على أطفالها من امرأة لا تعرفها، لم يعطها الشاب الفرصة للتفكير، استأذن فتح حقيبتها، قبل أن تأذن له، أخذ المفاتيح، وبنظرة كأنها سحر بث في قلبها الثقة به تجاههم:

- خذي المفاتيح يا سيدتي وهيَّا معي، فالأطفال وحدهم، وليبقَ عمي الشيخ مع الأخت حتى نعود، أخبرينا فقط بالعنوان.

ذكرته لهما، انصرفا، بقي الشيخ خارج الغرفة، خلدت ثريا إلى النوم.

استيقظت على وقع خطى الشاب، عاد وحده محملًا بحلوى وعصائر، جلس بجانبها، رأت عينيه عن قرب لأول مرة، تأملتهما طويلًا، أجمل عينين رأتهما على الإطلاق.

- ماذا بكِ؟
- ها؟!
- ما لكِ؟
- لا شيء، آسفة، فقط.. كنت أفكر في أولادي.
- كاذبة أنت يا جميلة، بل رحلتِ في عيني.
- لا أبدًا.. أنا..
- أنا أيضًا أحبك.
- لا تمزح، متى أحببتني؟ تعارفنا اليوم فقط!
- أحببتك لحظة أن رأيتك، أرى الحب يطل من عينيك.
- كلا.. كنت فقط شاردة الذهن.
- صه، فقط انظري في عيني.

عانقها بقوة ورغبة مشتاق، أمطرها بقبلات متعشقة، أحاطها بذراعيه، مأخوذة، مستجيبة، غابت معه لحظة، أو لربما لحظات خارج الزمن، حملها للأعلى إعصار عاتٍ، فلت زمام عقلها.

سمعت صوت أخيها ينادي؛ صرخت، تلفتت حولها، استعاذ عبد الله بالله، ربت على كتفها:

- لا بد أنه جاثوم، استعيذي بالله.

بالقرب منه، وقف الشيخ الكبير يحرك مسبحته بأصابعه، سبِّح، توجهت بالحديث إليه:

- أين ابنك؟ أليس ابنك؟ كان هنا.

تبسم الشيخ:

- لا يا ابنتي شافاكِ الله وعافاكِ، لا بد أنك تحلمين.
- أنا متأكدة، كان هنا.
- استعيذي بالله يا ثريا، اهدئي أنا بجوارك، ثريا ألا تعرفينني.. ثريا أنا عبد الله، لا حول ولا قوة إلا بالله.

سأل الشيخ:

- هل أثر الحادث على عقلها أو ذاكرتها؟
- أبدًا كانت بحالة جيدة منذ قليل.

نظرت إلى أخيها لائمة:

- كيف عرفت بوجودي هنا؟
- أخبرني صديق لي كانت زوجته تصلي معك في الجامع نفسه.

أغمضت عينيها منتشية مرتعدة، لم تسمعهم، دقات قلبها صمت أذنيها، لم تُرِد أن تخرج من بئر العسل التي سقطت بها.

دخل الأطفال مُحدثين جلبة، عانق الكبيران أمهما، في حين انزعج الصغير، ابتعد خائفًا، دمعت عيناه لرؤية الضمادات، تولت العجوز تهدئته، أخبرها شعرهم المبلل المصفف وملابسهم النظيفة، أن العجوز أحمَّتهم (غسلت جسومهم بالماء). حكت الابنة أن الغداء كان شهيًّا، شكرتها بعينيها، ردت الثانية بابتسامة ودودة، خلف الأطفال وقف الشاب يتابعهم بنظرات محب، تلجلج عبد الله، سأل عن موعد خروجها من المستشفى، وعما إذا كانت اتصلت بزوجها، أخبروه بعدم رده على الهاتف:

- لماذا؟ يجب أن يأتي.. ليكون بجانب زوجته.. سأتصل به..

تنهَّدت ثريا:

- كما تريد، خذ الأولاد معك لـ ..
- لا مع الأسف..

ارتبك من نظراتهم: زوجتي مريضة، حرارتها عالية، أخشى تعرضهم للعدوى منها.

غلفها الحرج والحزن، احتوت العجوز أزمتها:

- أعيش وحدي، أبنائي بالخارج، لا شيء يشغلني سأصحبهم إلى البيت، أرعاهم حتى يناموا.

تحدث الشاب، ملتفتًا إلى ثريا بين الثانية والأخرى، فشلت في تحاشي نظراته، ارتبك جفناها، أنقذها حديثه مع أخيها.

- إذن ستبقى مع أختك يا أخ عبد الله؟

نعـ.. نعم، لكنها ستنام، لن تحتاجني.. مع بزوغ الشمس، قبل أن تفيق من نومها سأكون هنا بمشيئة الله.. زوجتي ملازمة للفراش، تحتاجني بجوارها، سأتصل بأبيهم ليأخذ الأطفال عنده حتى تشفى.

بدا الغضب في عينيها، حاول تلطيف الأجواء:

- اذهب أنت ولا تقلق.

تلجلج عبد الله:

- معذرة أخي، وهل ستبقى هنا؟ لا يجوز.

ابتسم الشاب بسخرية:

- أعلم ما يجوز وما لا يجوز يا أخي.. أعلمه كله.. سأبيت بالخارج في قاعة الانتظار، لا تقلق، أنا معها منذ الصباح، لو أردت بها سوءًا، والعياذ بالله، لفعلت في أثناء غيبوبتها، نحن بشر ولسنا شياطين..

أتبعه الشيخ المسن بسخرية: لا تقلق يا بني أنا معهما، إن كنت قلقًا ابقَ معنا، أو اترك الأمر كله لله.

اصطبغ وجهه بلون أحمر:

- بالطبع الأمر كله لله.

دخلت الممرضة تأكدت من سلامة علامتها الحيوية وكتبت تقرير المتابعة، أبلغتها أن الطبيب أمر لها بالخروج غدًا، انصرف أخوها مسرعًا، جلس الجميع في الجزء الخارجي، عاد عبد الله بعد دقائق، حاملًا أكياسًا من العصائر، تهلل وجه ثريا:

- كنت أعرف أنك ستعود، لتسأل عن حساب المستشفى.

ارتبك:

- نعم.. نعم، لكن سأسأل غدًا.. لم أحضر نقودًا كافية لشدة قلقي حين أخبروني.. عاودي الاتصال بأحمد زوجك، سأحضر غدًا.

ثم بنظرة غضب:

- غطِّ وجهك، قد سكتُّ عن ذلك حين حضرت لأنك كنت متعبة، أما الآن فأنت بخير، أين نقابك؟

ردت بغضب:

- لا أعلم.

رد الشاب بخجل، خافضًا رأسه:

- الطبيب يا أخ عبد الله، أمر بنزع النقاب لسوء حالتها،

وحرارتها العالية، أظنه مع الممرضة.

أكمل:

- عامة يا أخي الضرورات تبيح المحظورات.

نظر عبد الله إلى ثريا وما زال غاضبًا:

- لتحضر الحاجَّة نقابًا آخر لك من دولابك غدًا.

نظرت إليه بتحدٍ:

- لن تحضر شيئًا، كفاها رعاية أطفالي وإجهادهم لها، بل اذهب أنت وزوجتك إلى بيتي غدًا، وأحضر لي ما شئت.

- كـ.. كما قلت.. زوجتي مريضة.. لن.. لن أستطيع، أعتذر لسوء الظروف.

قاطعه الشيخ بنظرة لا تخلو من احتقار تشاغل عنها عبد الله:

- لا تحمل همًّا يا بني، سنأتيها بما تحتاجه، اذهب إلى شأنك.. اذهب.

انصرف مسرعًا، خلفه المسن، تعجب لسرعته التي لا تتناسب وسنه الكبير، رشقه الأخير بنظرة وكأنه قرأ ما يجول بفكره، تعثَّر، سقط على وجهه متألمًا، نهض، نفض ملابسه، التفت، لم يجد الشيخ في الممر الطويل.

***

حدث الشاب الأطفال بمرح:

- أحبابي الصغار.. أتحبون الحلوى الشرقية أم الغربية؟

ابتسم الأطفال ابتسامة المريد المتعفف، ردها الشيخ بابتسامة أوسع:

- أقول لكم.. يوجد هناك محل رائع بجوار المستشفى.. لنختر.. ولنحضر لماما بعضها.. هيَّا.

رفض الأخ الكبير، شجعته العجوز، شكرته ثريا:

- كفاك ما فعلت، إنهم أشقياء، ستحتار معهم.

- لا يا أختي، لا شقي إلا الشيطان، إنهم ملائكة وأنا أحب مصاحبتهم، واليوم يوم إجازة، ليس لأجلهم إنما لأجلي أنا لأستمتع بحواراتهم وضحكاتهم البريئة من شرور البشر وطمعهم.

فَرَد كفيه للصغار:

- هيا.. لا يصح هذا.. يدي ممدودة.

ابتسمت:

- اذهبوا مع الشيخ، ولتطيعوا أوامره.

ذهبوا فرحين يتقافزون، جلست السيدة بجانبها، صففت شعرها، ساعدتها لتغيير ملابسها:

- شكرًا يا خالة، شغلتك عن شأنك.

- كما قلت لك لا شاغل لي، أنا أشترك في تنظيف المسجد مع الأخوات.
- لكني لم أرك قبل الآن.
- لأنـ.. لأنـ.. لأنني دائمًا أكون في الصفوف الأخيرة بعد أن أتم عملي التطوعي بالمسجد.
- بارك الله فيك، ومن أين لك بمصاريف معيشتك؟
- لي معاش زوجي، رحمه الله، يكفيني، والحمد لله على ستره ونعمه، بالإضافة لما يوزعه مولانا من وجبات غذاء يومية، وأتولى أنا توزيعها، ولكنه يصر على أن أتناول طعامي معهم، فتقريبًا لا أتناول في بيتي إلا لقيمات الفطور، أما في شهر رمضان الكريم لا فطور أو سحور إلا في المسجد.

نسيت مشاكلها، بادلتها الضحك، أطعمتها العجوز بيدها الفاكهة المقطعة:

- أرى الهموم تحوطك وتملأ قلبك الصغير، فضفضي إلى أمك العجوز ما بك، أين زوجك؟ لماذا لا يردُّ على هاتفك؟

قصت حكايتها بالتزامن مع دموع غزيرة بلا انقطاع، جففتها العجوز لها كأم رؤوم.

- كفاك بكاء، احمرت عيناك وتورمت.. إذا كنت تشعرين أني مثل أمك وتستمعين لنصائحي سأخبرك بما تفعلين.
- بالطبع يا أمي، ولن أناديكِ إلا بأمي من الآن.

غمرت الفرحة وجه العجوز:

- الحمد لله كل من في المسجد ينادونني بأمي.
- غريب أني لا أتذكرك.
- دعينا من هذا الآن، يجب أن يغار طليقك.. ارفضي العودة إليه ليشعر أنك غير متأثرة بغيابه.. إذا شعر باستغنائك عنه سيتمزق قلبه، كما مزَّق قلبك، وأظنك بجمالك هذا ستجدين من هو أفضل منه ألف مرة.
- من يقبل بامرأة تعول ثلاثة أطفال؟

ضحكت العجوز:

- زوجي الأول فعل فعلة السوء هذه؛ وطلقني لأجل زوجة أخرى، في البداية قررت إثارة غيرته فقط، إلا أنني وجدتني أنساه وأصبحت بحال أفضل بدونه، التحقت بعمل ووكلت محاميًا أتى لي بكل حقوق أبنائي حتى رزقني الله بزوج كما في الأحلام، عشت معه أجمل أيام حياتي وأسعدها، كان يحنو على أطفالي أكثر من أبيهم حتى كبروا وتزوجوا، ثم توفاه الله تاركًا لي الشقة ومعاشًا كبيرًا، وذكريات جميلة أعيش بها.. أشعر وكأنه ما زال حيًّا، افتحي قلبك للحياة لا تغلقيه على ذكرى زوج خائن.
- ماذا أفعل بالضبط؟
- لنبدأ بالحديث مع من حولنا ممن نحبهم، تحدثي معي، مع صديقاتك، أو مع مولانا، حديثه يطيِّب القلب والروح، ستشعرين

بعد الحديث معه بحب الحياة بل وسوف تحمدين الله لما فعله زوج بغيض مثل زوجك لا يحمد الله.

عاد الأطفال يتسابقون إلى غرفة أمهم، أشارت إليهم بالهدوء، خفتت أصواتهم، والسعادة بادية على وجوههم، حاملين بالونات، وفي يد كل طفل لعبة، ماج عقل ثريا بحديث العجوز.

- ثريا.. ثريا.
- ها!
- سأنصرف مع الأولاد، وسيبقى ابننا معك، فأنا أمه كما أنا أمك.

انصرفت مع مولانا، غمزت لها بعينها، بينما ذقنها يشير للشاب وهو مُولٍّ وجهه لثريا مبتسمًا، حدثها بود:

- سأكون بالخارج، مجرد رنة على المحمول أحضر إليك في التو واللحظة، لولا ابنتك الصغيرة لاستبقيت أمنا، وذهبت أنا مع أبطالي الصغار.

ابتسمت في امتنان، وهي تنظر إلى عينيه تستطلع عالمها الجديد.

***

تعانقت ساقا ساهر، وقع على البساط المخملي، ضحك منه الجميع حتى العبيد حاملو عربات المواكب، تقدم نحو مجلس إبليس يتصبب عرقًا، تحركت أعضاء جسده الناري رغمًا عنه في حركات لا إرادية مرتعشة، سجد أمام العرش، لم يرفع رأسه إلا بعد أمر من الملك، ألقى ما لقنه أيهم إياه:

- أيا ملك الإنس والجان أراك في ...

نهره بصوت ارتج له العرش، ابتل بنطال ساهر.

- أبلغني الرسالة وانتهِ من خوفك المثير لغضبي.

جاهد لتذكر الكلمات، بصعوبة فك التصاق شفتيه لتُفتح دون صوت، خرج صوته مبحوحًا في البداية:

- حضرة الأمير أيهم يبلغكم خالص احترامه، يعتذر عن حضور اجتماع الغروب لانشغاله في أمور مهمة سيسعد مولاي إبليس العظيم بها.

أشار إليه بالخروج من الاجتماع، انصرف مرتبكًا؛ تبعه قسورة عن بعد مع قوة من الجن التابعين لملك الريح ذوي القدرة على الذوبان في الهواء فلا يبينون منه.

*****

الفصل السابع

حوار حزين

هاتفت ثريا زوجها من محمول مولانا:

• ألو، أحمد.. اسمعني.. أنا..

طأطأت رأسها، تساقطت دموعها الغزيرة طويلًا، جلس الشاب على حافة الفراش، حوقل واستعاذ بالله قائلًا:

• اذكري الله يا أختي، اذكري الله، أغلق الهاتف؟ آثم، عاقبه الله، أمرنا الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام بالرفق بكنٌّ، لا تحزني.. إن الله معك، ولسوف يرضيك.

صمت برهة، تابع:

• الجئي إليه، ناجيه.. الواحد الأحد.. هو الأعلم بك وبحالك وبحلول مشاكلك، له الأمر كله، إنما يقول للشيء كن فيكون، قد يأتيك الحل في طرفة عين أو أقل.. أتحفظين بعض الأوراد؟

حركت رأسها بالإيجاب.

• إذن اقرئي أورادك.. وبعض آيات الذكر الجميل.. احم.. أقصد الحكيم.

ضحك، بادلته الضحك، جففت دموعها، أكمل:

• والله ما أخطأت.. إنه لذكر جميل حقًّا.. الله جميل ولا يأتي إلا بكل جميل، وما هو خير لنا.. ثقي بذلك، وكما قال الله تعالى على لسان رسوله: "أنا عند حسن ظن عبدي بي" أليس كذلك؟

• بلى، ونِعم بالله.

وبلهجة من اعتلى المنبر لإلقاء خطبة:

• قد يتأخر عنك حل مشكلتك يا أختاه.. انتبهي، وهي على الله هيِّنة، هينة جدًّا، قد تتأخر عنك الإجابة لدعائك.. فقط لعدم حسن الظن أو استئخار إجابة الدعاء، أو عدم توقع الحل السريع، وهذا سوء ظن بالله، والعياذ بالله، لماذا نبكي ولنا رب كريم قادر على إيجاد المخرج بين طرفة عين وأخرى؟!

تابع:

- أتعلمين؟ أخوكِ (أشار لنفسه) العبد الفقير إلى الله، تعرضت إلى أقوى الابتلاءات وأشدها على النفس، لكني والحمد لله.. ما وهنت ثقتي بالله أبدًا.

زاد علو صوته وسخونة الخطبة:

• ابتلاء في المال، والولد، والصحة.. بل ومكيدة من زوجة غير صالحة.

طل الحزن من عينيه، أشاح بيده:

• لا إله إلا الله.. أستغفر الله العلي العظيم.. غفر الله لنا ولها.. الله يسهل لها.. لا يجب أن أغتابها حتى لو أضرتني.

ناول مسبحته إلى يده الأخرى.

• دائمًا يا أختاه لا تذكري من أضرك أو أساء إليك بشتم أو سوء حتى لا يضيع أجرك عند الله واحتسابك..

عاود نقل مسبحته إلى يده اليمنى، أطرق برأسه إلى الأرض، استغفر قليلًا، عدَّ بأصابعه على حبات مسبحته.. أكمل:

• بالحيلة ومكر النساء.. معذرة أختي بعض النساء ماكرات وليس كلهن.. نحسبك على خير ولا نزكي على الله أحدًا.. وحسن ظن مني فيها، استولت على أموالي ثم طلبت الطلاق، تخيلي، غير عابئة بابنينا التوأميْن، هجرتني تاركة إياهم لي..

لمعت الدموع في عينيه، تناول منديلًا، ضغط به على أنفه:

• أجبتها إلى أبغض الحلال، معذرة أختي.. إنه وإن كان أبغض الحلال لكني لست الرجل الذي يُكره امرأة على البقاء معه، بل ولأريح ضميري أعطيتها حقوقها كلها كما لو كنت أنا الراغب في الطلاق؛ لا لشيء إلا مرضاة الله سبحانه وتعالى.

ردت مبهورة بما سمعته، مأخوذة من مشكلتها:

• ما شاء الله عليك يا مولانا، لم أتخيل أن على الأرض من هم مثلك.

- لا.. لا.. يا أختي لا تجاميلني بما ليس فيَّ، أنا رجل عادي، هكذا يكون الرجال.

دمعت عيناها من جديد:

- يـاه يا سيدي.. أتيت بخلاصة القول، هكذا يكون الرجال.
- نعم، الرجل كما وصفه الله عز وجل، فيما عدا ذلك فهم أشباه، تذكري، أشباه لمن أسماهم الله رجالًا.

شهقت بإعجاب:

- الله عليك.. الله، كلامك كالماء البارد على نار قلبي.
- أختي، اعلمي أن لله رسلًا، تصوري أني كنت ذاهبًا لدعوة عقيقة لأخ من الإخوة، إجابة لطلبه.

التفت إليها ضاحكًا خجلًا:

- لا أقصد شيئًا، لكنه ألحَّ في طلبه أن أدعو للمولود بنفسي، ولم أردَّ طلبه لكن ما شاء الله كان، قلت في نفسي أصلي في الجامع البعيد لأنال الثواب الأكبر، ثم شاهدت حادثة وقوعك وأنا خارج، الاستنتاج هنا ماذا؟ أن الله أرسلني إليكِ.

- يا مولانا أعتذر حقًّا، بالطبع لم تذهب لصديقك؟
- بدلًا من الاعتذار، ادعي لي لأنال رضا ربي، وبك قد رزقني الله الثواب الأكبر، تاجري مع الله دائمًا يا أختي.

ضحك:

• نعم تاجري مع الله، فعنده المكاسب كلها.. دعيني أكمل لك؛ كنت لا أعرف الكثير عن تربية الصغار، ورغم حرصي الشديد، وأمي سيدة عجوز، مرض الصغيران ثم.. توفاهما الله.

أخفى بكاءه في منديل، زادت حمرة وجهه، فازدادت وسامته، ناولته كوب ماء كان بجوارها، شرب منه ثلاثًا وهو يسمي الله ثم يحمده:

• شكرًا أختي، شافاك الله وعافاك، أنا أعلم أنهما في مكان أفضل، وسعادة أكبر، مما في هذه الدنيا الفانية الغرور، لكن فراق الأحباب مرير يا أختي.. أليس كذلك؟

• بلى.. مرير جدًّا، لا أنسى أمي وأبي أبدًا.

• أصابني المرض الشديد، وخسرت ما بقي لي من تجارتي، فقل مالي، لكن إيماني بالله وثقتي في كرمه وعدله لم تَهِن، وعدت إلى تجارة بسيطة وكافأني الله؛ لم أكن أعرف من أين يأتيني كل هذا المال، افتتحت ملجأ أيتام، ومشغلًا للنساء المعيلات، ومستشفى خيريًا.

• هنا في بلدنا؟

• لا في بلدتي في الصعيد، وهنا أشرف على بيوت أيتام وسيدات محترمات معيلات، إن شاء الله يتم شفاؤك وتساعديني في أعمال الخير هذه، فأنا لا أخوات سيدات لدي، وكثيرًا أشعر بالحرج وأنا

أقف خارج بيوت من أعول لأعطيهم المعاش الشهري، أخشى عمل الشيطان والعياذ بالله في رأس من يراني بالباب، لا أحتمل يا أخت ثريا الشك في عفتي، أو أن أتسبب في كلمة من فاسق لإحداهن، ولا تخافي لن أجهدك سأخصص لك عربة بسائقها.

استدرك:

- لا.. لا لن أترك هذا الثواب، أنا سأقود السيارة لأنال نصيبي من رضا الله عز وجل، ولتستقلي المقعد الخلفي حتى لا نثير الظنون.

بتردد وخجل زائد:

- ما شاء الله؛ تبارك الله؛ أنت صغيرة و.. وجميلة، أنت مطمع يا أختاه.

عاد صوته للهجة الخطابية:

- اعلمي أنك في يد أمينة تخشى الله عز وجل.. تخشى عليك من نسمات الهواء لمجرد أن تطير خمارك.. ما رأيك؟

صمتت لثوانٍ وحديث العجوز يتموج في رأسها حاملًا فرحة كبيرة أنستها الخجل، ها هو يا أحمد؛ شاب ثري وسيم، ملتزم صوَّام قوَّام، أين أنت منه في.. في كل شيء؟! يراني جميلة، نظراته تحمل الإعجاب، لتحضرْ الآن يا أحمد؛ مؤكَّد أن الغيرة ستأكل قلبك، أفاقت على صوته:

- أخت ثريا.. ما بك؟

استعادت وعيها:

- بالطبع أكون سعيدة.

أطرق برأسه قليلًا:

- أريد التحدث في أمر لكني أشعر بالحرج، وأخشى غضبك وسوء الفهم، أنا لا آمن عليك لكني أفهم مشكلتك، سيكون لك معاش شهري.

- لا، أنا لا..

استرق نظرة لوجهها المشوب بحمرة الخجل، عاود خفض عينيه:

- يا أختي، قلت لك ستعملين؛ أي أنك ستنالين أجرك عن عمل وليس إحسانًا، هذا بالنسبة لك، أما أطفالك فهذا أمر بيني وبين الله.. ألم أقل لك إني أحب التجارة مع الله.

سالت دموعه ثانية:

- سأتولى رعاية أولادك، طمعًا في أن يجمعني الله بابنيَّ في الجنة، ويصرف عن قلبي الحزن الذي يجثم على صدري.. والله يا أختاه كثيرًا ما أصحو من نومي على شهقة وكأن أحدهم يجثم على صدري.

أطرق ببصره إلى الأرض قليلًا ثم رفعه، رأت لمعة الدمع في عينيه، أكمل:

- لولا رؤية الحبيب النبي صلى الله عليه وسلم..

أطرق إلى لأرض ثانية، صلى على النبي مرات كثيرة، استجمع قوته ليكمل:

- رأيته؛ هو حبيبي في منامي، وهذا ما هدأ قلبي.

غطي وجهه بيده، هتفت ثريا بانفعالٍ:

- الله أكبر، اللهم صلِّ عليك يا سيدي يا رسول الله، رأيتَه بالفعل؟

- نعم يا أختي.. وهل هذا مجال مزاح؟ هو من هداني إلى ما أفعله الآن من أعمال الخير، رأيته ثلاثًا.. وفي المرة الأخيرة..

هتفت باندهاش:

- ثلاث مرات!

فرَّ الدمع من عينيه:

- بشَّرني بالجنة.

تهدَّج صوته:

- بل رأيتها من بعيد وشممت ريحها.

أغمض عينيه، ارتعشت يداه، انخرط في البكاء. سرت قشعريرة تبعتها رجفة في جسدها، مأخوذة بما سمعت:

- مبارك عليك يا مولانا، هذا أمر مفرح.. لماذا البكاء؟

- كيف ذلك؟! لحظة صعبة جدًّا، لا أعرف كيف تحمل جسدي أنا العبد المخطئ قرب النبي ﷺ، وريح الجنة؟ لا أعرف بماذا أشبهها لك، لكني أخاف مكر الله، أخاف من ارتكابي معصية تبعدني عنها؛ أخاف حتى الموت.

- بعيد الشر عنك، ومن يتولى هؤلاء اليتامى؟

- استغفري الله؛ هو الواحد الأحد، هو المولى هو الوكيل مدبر الأمر كله.

- أستغفر الله العظيم، ونعم بالله!

انفتح شباك الغرفة فجأة، اصطدمت حافته بالحائط، محدثة صوتًا عاليًا، صرخت ثريا فزعة، اندفع هواء ساخن شديد محمل بالأتربة، طمأنها الشيخ أغلق الشباك، تلفت حوله كأنه يبحث عن أحد:

- أتبحث عن شيء؟

ابتسم:

- لا لا، فقط أخشى عليك من التراب.. أراك أفضل الآن.

- لا بد أن أكون أفضل بعد ما سمعته منك.

• نعم، نعم بفضل الله، اسمعي يا أختاه، في ثاني مرة أتاني الحبيب محمد ﷺ، وعلمني رقية ربانية، ما رقيت بها أحدًا إلا وشفي، ما رأيك؟ أرقيك بها؟

• نعم.

علا الخجل محياها:

• لكن كيف؟ و.. أقصد ...

• نعم نعم، أفهمك، بالطبع يا أختي لن أضع يدي على جسدك، عافانا الله ورحمنا..

تسلل صوت دمدمة في الغرفة لمسامعها، زجَّ القلق في قلبها:

• ما هذا الصوت؟ أتسمعه؟

ضحك ضحكة قصيرة:

• نعم.. احم.. اسمعه، أظنه من غرفة مجاورة.

تابع حديثه:

• لن أمسك أختي، نحن نتعلق برضاه، إنما رأسك فقط، ومن فوق غطاء رأسك، تمددي بسم الله، أغمضي عينيك، وحذارِ أن تقرأي آية من القرآن حتى لا تشوشي على قراءتي.

حركت رأسها بالإيجاب، ما إن بدأ قراءته غير المفهومة على رأسها، ذهبت في نوم عميق.

***

علم جن الريح الجواسيس بنومها، مروا من أسفل الباب لإبلاغ قسورة وحرسه، اقتحموا الغرفة لاختطافها..

دارت رحى حرب، سخّر كل طرف فيها أقصى قدراته من حرق بالنار أو الصعق، فجرت ذبذبات أجسادهم الكهربية لمبات الإنارة في الغرفة، وشاشة التلفاز، محدثين أصواتًا مرعبة وانقطاعًا للكهرباء، وقع كثير من القتلى بين محاربي الطرفين، علت دمدمتهم وصراخهم، خشي أيهم استيقاظ المتصارَع عليها؛ حملها وطار، أخيرًا استيقظ ساهر النائم على أريكة خارج الغرفة، أسرع لاستبيان الأمر في هيئة الشيخ العجوز، أسره قسورة، وهرب به تاركًا من قتل أو أصيب من أتباعه.

*****

الفصل الثامن

أجمل حلم

حمل ثريا بين يديه، صبَّ الحنان والشوق في عينيها صبًّا، قبل جبينها، قبلة شبِقة، مارًّا بشفتيه على جبهتها وأنفها حتى لثم ثغرها، زجَّ الشوق وجهها المُحمَر ما بين ذقنه وصدره بشغف، انتبهت للحظة، السحب تمر من تحتها، شهقت، ابتسم، مدت يدها لتلمسه غير مصدقة، صعد بها فاردًا جناحيه الشفافين اللامعين، انتابتها حالة من الذهول والخرس، تلألأت النجوم كقطع ألماس حولهما، أحاطتهما طيور بديعة الجمال وسط أضواء وردية خافتة، تحولت لسيدات ارتدين ثياب حجاب أبيض مبهر بنصاعته، حولهن رجال غطَّوا نصفهم الأسفل بشراشف الإحرام البيضاء.

وصلوا إلى ممر مؤدٍ إلى مدخل قصر على سطح الماء، سار بها على السجاد المخملي بين صفَّين من عبيد سود لبسن ملابس زاهية الألوان؛ ضربوا الدفوف، غنوا أغاني الزفاف، نثرت النساء زهور الفل والياسمين عليهما، غابت عنها نفسها..

أنزلها من بين ذراعيه برقة في قاعة دائرية كبيرة؛ زُيِنَ سقفها وحوائطها برسوم لأطفال جميلة ذوي أجنحة يلعبون وسط السحب، شعرت أنها تطير معهم، وضعها على متكأٍ وثير، مغطى

بحرير أرجواني اللون مزركش الأطراف، الخدم منتظرون تلبية أي إشارة من رئيسهم، أمامهما منضدة موضوع عليها كؤوس كبيرة مرصعة بالألماس، تحوي اللبن بالتمر والزبيب، أطباق ماسية بها فاكهة كل المواسم، وإناء كبير لامع كمرآة، يحوي الماء المزهر للشرب.

تقدم خادمان يحملان صينية عليها علب تحوي كثيرًا من الجواهر والحلي، سألهما أيهم:

- ممن هذه الهدايا؟

أجاب أحدهما:

- من شركائك في أعمال الخير.

أمرهما ببيعها وبناء مساجد جديدة بها.

انحنى خادم آخر حاملًا علبة مزركشة فوق صينية مذهبة، فتحت العلبة فظهر لها خاتم لم ترَ له مثيلًا، أرسل أضواء غشَّت عينيها، قبَّل ما بين عينيها، أسكرتها أنفاسه، وضع الخاتم في بنصر يسراها، تلألأت أصابعها ثم يدها تباعًا، صدح مغنٍّ بصوت جميل، بأغاني الفرح للعروسين، بينما جلست جنيات رائعات الحسن بحجابهن في جانب والجن الذكور غاضون البصر عنهن في الجانب الآخر.

انصرف الجميع قبيل أذان الفجر، صلى بها إمامًا، لم تعرف ماذا قرأ، أهي الفاتحة أم آيات أخرى؟!

انتقلا إلى شرفة زجاجية ظهر أسفلها قاع البحر بألوانه الجميلة وأسماكه، تأملت الأجواء حولها مسحورة، كلما همت بسؤاله عما يحدث ألهاها بمشهد آخر، ظهر قرص الشمس البرتقالي، حملها إلى مخدعهما.

تعجبت لغنج ضحكتها، طراوة جسدها ومرونته، رقصت بدلال، سألت نفسها: "كيف ذلك؟ أنا لا أجيد الرقص" توقفت عن الرقص، لاحظها، لم يدم السؤال بمخيلتها طويلًا، تبخر من رأسها!

رأت جسدها شبه العاري في مرآيا بلورية منتشرة في الغرفة، ملابسها حريرية شفافة بلون السماء، كشفت مفاتنها، ساقاها مزدانتان باللؤلؤ، خلاخيل تصلها سلاسل من نهايتها بعشرة خواتم في أصابع قدميها؛ عقد قصير أحاط بجيدها، مزدان بفصوص بلون ثوبها، مع اللون البرتقالي الفاتح المبهج، زادت شهوتها بنظراته النهمة، كاد يأكل جسدها، أطلقت ضحكة معربدة لم تسمح بسماعها من قبل، شاركته المتعة، بلغت نشوة لم تعلم بوجودها تحت السماء، بلا خجل من عريها، واثقة بنفسها؛ صرخت بأعلى صوت:

- أنا الملكة، وأنت مليكي، لم أتزوج قبلك..

تلقفها ضاحكًا بين ذراعيه والسعادة تطل من عينيه:

- سعيدة؟
- سعيدة؟ ألا يوجد وصف أدق؟ ما زلت أطير بين ذراعيك،

كيف طرنا؟ وأين نحن؟ و...

وضع سبابته على شفتيها برفق:

- صه، إنها ليلتنا، لن نضيعها في الكلام..

تقلبت في أحضانه، طارت دون جناحين؛ بلغت عنان السماء.

***

استيقظ أيهم من نومه على يد تداعب شعره.

- مولاي وحبيبي.. أعشق رؤية وجهك الجميل وقت استيقاظك.
- ريڤال؟ ماذا تريدين؟
- إنه وقت استيقاظك، طلبت من شيتو، بل وتوسلت إليه أن يترك لي دقائق أسعد بها بجوارك وأتمتع بلمساتك.
- وقد حقق لك شيتو ما تمنيت فهيَّا اتركيني لأواصل ما كنت أفعل.
- ماذا تفعل؟ أتحلم بها؟
- من؟
- بنت آدم التي بلينا بها.. مولاي.. كيف كانت ليلتك معها؟

انتفض، نظرة غاضبة منه كانت كافية لتبتعد إلى الخلف بعيدًا عن السرير:

- كيف تجرؤين، تسألين عما لا يخصك؟ سبق أن حذرتك.. سوف..

قاطعته مندفعة إلى صدره باكية:

- أعتذر يا مولاي.. شدة حبي لك.. أنا.. أنا أحبك وأغار عليك.. أنا..

دفعها بعيدًا عنه:

- كانت ليلة رائعة يا ريڤال.. لم أكن أعرف أن بنات آدم لهن هذا الجمال والدلال والنعومة.. ببساطة لهن مذاق آخر.. مختلف.. ممتع.. خلقها ربها في صورة جميلة خلافًا للجنيات؛ فأنتنَّ تتشكلن كما تردن، كلكنَّ سواء.

نادى غاضبًا:

- شيتو.

أسرع شيتو يبسمل ويحوقل، انحنى ملتاعًا:

- مولاي.
- لا أحد غيرك يوقظني بعد الآن..

انصرفت مكسورة النفس، دامعة العين، تأملت صورتها في المرآة المواجهة لممر الغرف، رفعت رأسها بشمم، حدثت نفسها:

"أنا أجمل بنات الجن، بل أجمل من السعالي بنات إبليس في أجمل صورة يتلبسْنها، أنا الأجمل على الإطلاق، سنرى من الخاسر يا مولاي." مشت مختالة واثقة.

***

ظهر قائد الجواسيس فجأة أمام باب قاعة الاجتماعات بزِيِّه المختلف، والمعروف بقبضته الحديدية الشديدة على الجن جميعًا حتى أفراد العائلة الملكية، عُيّن له من يوشي به من أهله، إبليس ذاته يحترمه، كلمته موثوق بها لديه، لا يرد له طلبًا، لكن القائد لا يأمن بطش الملك.

طلب الدخول، فزِع الوزراء والحراس، أُذِن له بالدخول، سار بثقة واعتزاز، وطئت قدماه أرض القاعة بشدة، نظر له من فوق عرشه، فهمه القائد؛ خفف من وقع خطواته، ركع أمامه.

- مولاي الملك العظيم.. حاكم جن الماء واليابسة، قائد الريح والرمال والأمطار، ملك ملوك البر والبحر، من تعلو الأمواج وتنخفض لأمره، أطلب الإذن في جلسة خاصة.

أشار إليهم بالانصراف، راقبوا نظرات القائد من طرف خفي للتنبؤ بالمسكين الذي سيدور حوله موضوع الجلسة، لمح أحدهم اسم أيهم على ظهر الملف، تنفس الصعداء وخرج تاركًا البقية في خوفهم وحيرتهم.

***

استيقظت مبتسمة، تثاءبت في كسل، تقلبت على سريرها لتخفف من آلام لذيذة شملت جسدها، وصل لسمعها صوت حركة حبات مسبحة، لازمت استغفار الله، ودعاء نهاية رُقية الشاب، تلاقت عيناها بعينيه، احتواها خجل شديد، نهضت فزعة، تأوهت من آلام عضلاتها، ابتسم لها بحنان، زاد ارتباكها، سألت نفسها: "ما له كأنه يعلم بأحلامي الغريبة؟!"

ناولها كوب ماء، أمرها أن تشربه على ثلاث رشفات تبدؤها بالبسملة وتتبعها بالحمد، نفَّذت؛ زالت آلامها فجأة.

حضر عبد الله إلى المشفى متأخرًا، رمقته بغضب:

- لماذا تأخرت، ذهب الشيخ لدفع حساب المستشفى، لا تتصوَّر مدى حرجي منه.
- ألا تتصلين بزوجك؟ هو المكلَّف بك.

ردت بجرأة، تعجب لها:

- كان المكلف بي قبل الطلاق، الآن أنت المكلف، على الرغم من ذلك اتصلت لكنه أغلق الخط.
- أنتِ في فترة العِدَّة وما زال مكلفًا بك، حدثتُه لكنه ما زال مكتويًا بنار ما فعلته به، والفضيحة التي تسببت بها وسط جيرانك.. أنت امرأة متهورة، عاصية، وماذا سنفعل لسداد دينك للشيخ؟
- لا تقلق، لا أريد مالًا منك أو منه، سأعمل وأدفع له.
- تعلمين أن لا مال لدي وإلا دفعت.

باستخفاف شديد ونظرة ذات معنى:

- نعم نعم، أنا واثقة، لكنك لم تسألني عن العمل الذي سأقوم به.. أليس من الواجب أن تطمئن على أختك؟

بُهت من ردها، تفحص وجهها بتعجب، باحثًا عن سبب ما طرأ عليها من جرأة وقوة.

***

دخل حاملًا حقيبة ملابس ثريا، وضعها جانبًا، ناول الأطفال أكياس الحلوى، هللوا، نادوا أمهم الصاعدة ببطء، مستندة على ذراع أخيها، ارتمت على أقرب كرسي إلى الباب، عانقت أطفالها، قبلتهم، انسابت دموعها في صمت، أحضرت العجوز المناديل، جففت دموعها وواستها، دعت الجميع للجلوس.

انفعل أخوها:

- ماذا حدث للبكاء من جديد؟! غدًا أذهب والشيخ علي إلى زوجك ونأتي به لتسترضيه ويردك إلى عصمته.

ردت بثبات وثقة أثارت غضبه أكثر وأكثر:

- لا تذهب، لن أسترضي أحدًا بعد الآن.

احتقن وجهه، انتصب واقفًا، بدا لها أنه سيضربها، نهرها بصوت أفزع الأطفال:

- لا بد أنك جننت.. منذ متى وأنت تتحدثين مع أخيك الأكبر

بهذه الطريقة؟! منذ متى تتعالين على أوامر الله ونواهيه؟! ثم إنك شفيت والحمد لله.. أين نقابك؟

أجابته بقوة أصابته بالجزع.

- خلعت النقاب ولن أرتديه..

أمسك بيدها، سحبها من جلستها.. أسرع الشاب، خلصها منه، ممسكًا يده بقوة أخرسته، هدأ من روعها، حرص أن لا يمسها، ربت على كتف عبد الله الساكن المسحور:

- اجلس، واستعذ بالله، إنها غاضبة.. أمر عادي.. النساء يا أخي، وأنت الأعلم، يحبين التدلل.. حقها، عزز أختك؛ ليأتِ أحمد ويصالحها، حقه أن يتزوج، لكن ليس من حقه إهانتها أو جرحها، وكما قلنا النقاب مكرمة، دعها بالله عليك في همها، سترعاها أمنا ولن تتركها للحظة.

أفاق، تلفت حوله، لم يرَ إلا احتقار العجوز وأخته، رشقه الأطفال بنظرات لائمة غاضبة، انصرف صافقًا الباب خلفه، هبط السلم بأنفاس متلاحقة، تملكه خوف شديد شاعرًا أن أحدًا يراقبه، تلفت، تعثر، كاد يسقط، هرول مرتجفًا.

في الأعلى عاودت ثريا البكاء، أخذت العجوز بيد الأطفال داعية إياهم إلى أكواب الشوكولاتة الساخنة، جلس مولانا على الكرسي الأقرب إليها، ناداها باسمها مجردًا، وأرسل نظرات لا تأتي إلا من عاشق.

سقطت جفونها لا إراديًّا، كأنما أغشي عليها، ارتعشت رموشها، ذهب صوتها، تنحنحت:

- نعم يا مولانا..

- سمعتني أناديك باسمك.. ليكن حديثنا صريحًا.. لا أحب اللف والدوران.. ثريا.. أنا...

سحب نفسًا طويلًا كمن يستجمع قواه، اخترق عينيها بنظراته:

- أنا أحبك.

أصدرت شهقة عفوية، غطت فمها بيدها، اتسعت عيناها، ابتسم بود:

- ما لك؟ وكأنك تبحثين عن الصدق في عيني، أتصدقينني أم لا تصدقين ما يحدث؟ إن كنت لا تصدقينني فسأنصرف، ولن أحدثك في الأمر ثانية، وسأنفذ وعودي بالعمل ومساعدتك دائمًا متى احتجت إلي، وأقدم كامل الرعاية لأطفالك، وإن كنت لا تصدقين ما يحدث فحرام عليك، ألا تؤمنين؟!

أشار بسبابته إلى الأعلى:

- {إنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون} صدق الله العظيم.

ردت بحماس:

- لا.. لا، كيف لا أصدقك؟! أصدق بالطبع، وأؤمن بالله

القادر، فقط الموقف.. لا تؤاخذني ولا تغضب..

خفضت رأسها غارقة في خجلها:

- أنت عزيز عليّ.

بادلها البسمة والخجل؛ خفض رأسه، راقب أصابعه تعبث بحبات مسبحته.

- كنت أعتقد أني أكثر من عزيز.. أم هو الخجل عقد لسانك؟

هزت رأسها بالإيجاب، اختلاس النظر إلى عينيه، واحمرار وجنتيها، فضحا سعادتها.

- إذن حبيبتي لنتزوج فور مرور فترة العدة، المهم ألا يردّك زوجك خلال هذه الفترة.. أم..

خفض رأسه، تابع بصوت حزين:

- أم تريدين إعطاءه فرصة أخرى لأجل الأطفال؟

بسرعة وشدة حركت سبابتها ورأسها بالرفض:

- لا.. لا.. لا أريده.. لا أريده أبدًا.

بابتسامة قوية مسيطرة:

- اتفقنا.. حرصًا على رضا الله ﷻ وخشية منه، سأطلب من أمنا أن تبقى معك.

التفت إليها:

- دائمًا أنسى اسم ابنها.
- اسمه ساهر.
- اسم غريب.. لتبقَ أم ساهر معك، حتى أستطيع الحضور لتلبية حاجاتك وحاجات الأطفال، ولن تخرجي للعمل فلا أحب عمل الزوجة، أحب أن تتفرغي لرعاية أطفالنا..

نظرة حُمِّلت بالود والمداعبة، انخلع لها قلبها كمراهقة احتلَّ الحب قلبها لأول مرة، سألها:

- ألن ننجب أطفالًا؟ أريد ثلاثة، ليصير لدينا نصف دستة من الأبناء..

بصوت منخفض حنون:

- أم تريدين أكثر؟

خجلت، لم ترد، أكمل بلهجة آمرة:

- لا أريد رؤية طلقيك هنا.. وإن أصرَّ على وجوده انهريه بقوة أو دعي الأمر لأم ساهر، لا أزكِّيها على الله ولكني أحسبها قوية في الحق، وإلا استأجرت لكم سكنًا آخر تقيمون فيه حتى ننتهي من إعداد مسكن الزوجية.

ردت بصوت خفيض وشى بالطاعة:

- أمرك؛ لن أدعه يدخل هنا.

نادى:

- أم ساهر.. يا أمي.

دخلت مسرعة، كأنها تنتظر نداءه:

- نعم يا ابني؛ ماذا تريد؟

- أتمنى يا أمي، إن تفضلت علينا.. أن تبقي مع ثريا حتى لا يأتي زوجها ويؤذيها.

سألت ثريا بخوف:

- ماذا سأفعل إن ردني؟

ردت أم ساهر بسرعة:

- لن يردك.. لا تخا..

التفت مولانا بسرعة إليها، انحشرت الحروف في حلقها، ذهبت أنفاسها ربتت ثريا على العجوز:

- ما لك تنظر إلى أمنا هكذا؟ أرعبتها.

تلعثم:

- أعتذر يا أمي.. لكن ما قلته خطأ وحرام، الأمر والعلم عند الله، إن ردها ستطلب الطلاق منه، نعم هو أبغض الحلال لكنها لا تطيقه.

التفت إلى ثريا:

- صحيح كلامي أم ...؟
- نعم؛ نعم كلامك صحيح.
- سامحاني؛ لا أحتمل كلمة فيها شبهة حرام، لا أطيق.

خفضت رأسها:

- بل أنا من يعتذر يا بني، أستغفر الله من كل حرام، لم أقصد.

أكمل:

- أبلغك يا أم ساهر أننا سنتزوج فور انتهاء عدتها، لن نبلغ أحدًا حتى لا نعقد الأمور مع طليقها وأخيها.
- مبارك يا مولانا.. مبارك يا ابنتي..

عانقت ثريا وقبلتها، تلجلجت:

- يا مولانا أريد الذهاب للاطمئنان على ابني، بلغني أنه في كرب شديد.

بنظرة محذرة أجابها:

- لا تخافي يا أمي، سأذهب إليه بنفسي، لا تقلقي، أنت تعلمين صدقي.

خفضت رأسها راغمة، بينما ثريا غارقة في أحلامها الوردية.

*****

الفصل التاسع

دموع إبليس

ودعها بنظرات والهة وأخرى محذرة لأم ساهر، انصرف بعد التشديد على عدم ترك ثريا وحدها، وبمجرد تأكده من إغلاق الباب، طار وسط حراسه المنتظرين خارج الباب عائدًا إلى قصره شاعرًا بالانتصار.

على بوابة قصره، وجد استدعاء إلى لقاء عمه، طار ثانية وسط حراس الملك.

*****

جلس فوق تلة عالية تكشف وادي برهوت وبئره، راقب مريديه من السحرة الآتين لاجتياز الاختبارات لنيل مرتبة ساحر أعلى، بالإضافة إلى عدد أكبر من الأعوان محترفي السحر من الجن الشياطين.

نظر إلى السماء، ازدادت نار عينيه اشتعالًا، تذكر حياته بين الملائكة منعمًا لا يكف عن التسبيح وعبادة الله ﷻ.. سعيدًا بحريته في التنقل بين السماوات والأرض، متمنيًا نسيان حياته السابقة على الأرض؛ لشدة ما عاناه من أهوال الحروب الطاحنة بين قبائل الخِن

والِبْنْ، أرسل الله الملائكة، فقضوا عليهما، ولم يتبقَّ منهم إلا صغير يبكي، صعدوا به إلى السماء، عاش معهم، تعلم العبادة، فاق الملائكة في التسبيح، صار رئيسهم.

زفر أنفاسه الملتهبة من ذكرياته المؤلمة بعودته إلى الأرض مطرودًا من رحمة ربه، وتحريم دخول الجنة عليه، ثم تحريم دخول السماوات جميعًا مع تعاقب الأنبياء الواحد تلو الآخر.

ساد الغبار المحمل برائحة عفونة دم الأطفال المذبوحين على مدار السنين الماضية، كقرابين قدمها السحرة لأجله، يتجرعه إذا نال الساحر رضاه واجتاز الاختبارات القاسية، لم يبقَ إلا ساحر واحد، أعد نفسه للاختبار. راقب أيهم الشمس المستعدة للرحيل بين قرون عمه من بعيد، زاد لونها المتوهج من دمامته، انحنى أمام عمه، قبل إلقاء التحية عليه وتمجيده، لاحظ ضيقه الزائد:

- ما بك يا عمي؟ أراك في همٍّ عظيم.

تطلع إليه مندهشًا:

- ابن أخي يهتم لأمري؟! عجيب!
- أنت عمي وملكنا العظيم ولا بد من أن أهتم لأمرك.
- سأدعي أني أصدقك.. اقترب.

انحنى:

- لا يصح أن أقترب من مقامك العالي.. أخشى أن تحرقني نارك المضيئة وحقد الشياطين جميعًا لقربي منك يا مولاي، دعني هنا

تحت قدميك.

• نبذل الجهد العظيم ليخطئوا، يتوبون ثم يعودون إلى معصيتهم، ثم يتوبون..

تنهَّد:

• ويغفر الله لهم.

• لا أفهم يا عمي العظيم.. هم هكذا دائمًا.. ومن أعلمك أن ربهم غفر لهم.. ثم لماذا قلت: "الله" كما يقولون؟ هو إلههم لا إلهنا نحن.

بنظرة شك؛ سأله:

• أتريدني أن أصدق أن أمك أو خادمك لم يخبرك؟!

• بماذا يخبرونني؟

• أنّ الله ربي أنا أيضًا..

طغت نبرة الأسى على صوته:

• طردني من رحمته، لأجل آدم الطيني، بعد أن كنت رئيس الملائكة النورانيين، بعد كل حبي وعبادتي له.. كل شبر في السماوات والأرض يشهد أني صليت فيه لله.. ذرات الهواء تشهد تسبيحي له، وعدني العذاب لأجل كفار خَطَأة، كنت أدخل الجنة في حين مُنع بعض الملائكة من دخولها.. الآن أنا ممنوع من الجنة ونعيمها؛ أشقى أنا وذريتي في الأرض بسببه.

تلعثم مندهشًا:

- لكنه ليس ربك الآن.

صرخ، فزع أيهم والحرس، سقط الساحر المنتظر للاختبار مغشيًّا عليه، أكمل صراخه:

- أذْنَبَ ذلك الصلصال، فغفر له وطردني؛ وأنا من كنت أسبح له بُكرة وعشيًا، بل وفضحني في كتبه التي أنزلها على أبناء آدم الطيني، لم يُقدِّر حبي له وغيرتي عليه من آدم، مع أنه هو نفسه غار على نبيه إبراهيم لشدة حبه لابنه إسماعيل؛ فطلب منه ذبحه..

انتفض متسائلًا:

- طلب منه ربه أن يذبح ابنه؟! فلماذا إذن لم يغفر لك غيرتك عليه وحبك له، ولماذا يغفر لآدم؟

التفت إليه في حركة مفاجئة، بدا الغضب على وجهه:

- ذلك الصلصال يطلب المغفرة ويتذلل؛ أما أنا فلا أتذلل، أنا من النار التي سوف تحرقهم، أنا.. أنا إبليس رئيس الملائكة على الرغم من أني نار وهم نور.. أنا رئيس المخلوقات النورانية؛ أسجد لطين؟! كيف؟! أترضى أنت؟

- عمي العظيم لا أرضى لك الذلة.. لكني ما زلت لا أفهم.. لماذا رضي الله لك الذلة أمام هذا المخلوق الطيني؟ لقد عاشرت بني آدم إنهم تافهون.. يدعون العقل وهم أبعد ما يكونون عنه، يدعون الطاعة لربهم ولا يلتزمون بتعاليم كتابه الذي أمرهم به.. يكرهون

الظلم ويظلمون.. وهكذا هم في كل أمور حياتهم؛ مدعون كاذبون، فكيف تسجد له وكيف يأمرك ربك بالسجود لمن لا يطيعه بل ويكفر به؟

أشار الملك، بدأ الساحر اختباراته بالنزول إلى بئر برهوت، تقدم الساحر وما إن نزل التهمته إحدى السعالي متجسدة في صورة أفعى ضخمة بفم واسع، ابتلعت الساحر بسهولة، عاد إلى حواره مع ابن أخيه:

- ها قد شهدت أنت ببراءتي، وكيف طردت ظلمًا من الجنة.. وقد ظلمت أنت أيضًا معي وكل الشياطين لأجل آدم.. بل وأقيد بسلاسل وأغلال خلال شهر صيامهم ولولا قوة قبضتنا على المملكة لذهبت هيبتنا تمامًا، يعلم الجميع ببقائي لمدة شهر بلا حول أو قوة.

- أمر محزن حقًّا.. أتعلم يا عمي.. والتمس لي العذر، لثوانٍ سألت نفسي؛ لمَ لمْ تطلب العفو من ربك، رأيتك مخطئًا.. لكنك محق.. تُطرد لمجرد اعتراض منك، ويكفُر بنو آدم ويغفر لهم.. لماذا؟ بل وتُذل من أجله لماذا يحبه أكثر منك؟

- لا أعلم، لذا يجب أن تجتهد أكثر وأكثر مع بني آدم.. خذ بثأري وثأرك..

- لم أرَك بهذا الحزن من قبل يا مولاي! لم أكن أتخيل أن كل هذا الألم يسكن في داخلك، شعرت بالظلم لموت أمي مبكرًا، وأعرف مدى ألمك.

- أتعلم أنهم أيضًا السبب في موت أمك؟
- كيف؟ أخبرني.

قطع حديثهما صراخ الساحر آتيًا من بطن الأفعى، زحفت خارجة إلى حافة البئر، فتحت فمها لفظته خارجها، مغشيًا عليه، ضربه الحراس بسِياطٍ نارية، أفاق من شدة الألم، طرده كبير الحرس صارخًا:

- انصرف أيها التافه الضعيف فلست قويًّا لدرجة استحقاق هذا الشرف.

هرول خارجًا من الوادي، سقط ثم نهض، عاود السقوط والنهوض حتى ابتعد، علت ضحكات الحرس واستهزاؤهم به، راقبهم إبليس من فوق التلة مطرقًا، لأول مرة شعر ابن أخيه بالتعاطف معه:

- أخبرني يا عمي.. أقتلوا أمي؟

- لا لكنهم أغووها بالإيمان بربهم، ونحن مطرودون من رحمته.. غضب كل الشياطين عليها وابتعد عنها الجميع وقد حاول أبوك كثيرًا لتعتذر عن خيانتها لعشيرتها، لكنهم ختموا على عقلها حتى إنها قاطعت أباك وهجرته بحجة أنها مؤمنة وهو كافر.. أعياها التشتت بين الإيمان والظلم الواقع علينا فمرضت وماتت في أثناء قمع أبيك لتمرد بعض قبائل الجن المؤمن مثل أمك علينا.. أتذكر أنهم كادوا يقتلون أباك وهو المقاتل القوي الشجاع لتشتته بسبب غضبه على أمك.. وأتذكر عودته جريحًا، وآلامه الشديدة والتي

زادها موت أمك.

طأطأ أيهم رأسه حزينًا حانقًا:

- هوِّن عليك يا عمي.. سيأتي حقك وحق أبي وأمي.

- أتعلم، كنت في الجنة لا آكل ولا أشرب مثلكم، أتمتع بجمالها، لم أشرب الدم إلا بعد غضب ربي عليّ.. كان لا بد من شرب دماء أبناء آدم.

بابتسامة العالِم بالأمور.

- أعلم أنك تكره الدم ورائحته، ومن يشربه..

خفض رأسه بالموافقة، قتل حزنه كل الخوف من عمه، أكمل:

- ماذا تفعل إذا أفسد أحدهم حياتك وحياة كل ذريتك من بعدك؟ صدقني يا بني؛ ستشرب دمه ودم أبنائه انتقامًا منه، أليس كذلك؟

- نعم.. محتمل.

- بل بالتأكيد.. نار الكرامة المهدرة وحرقة الإهانة ستدفعك إلى أمور كثيرة كنت لا تود فعلها، كما لو علمت من الذي أقنع أمك بالانضمام إلى عبادة رب بني آدم..

- أتعلم من هو؟

- جدة ثريا.

وقعت المفاجأة كالصاعقة على رأسه، تابع العم:

- لذا اخترتك أنت لهذه المهمة؛ لتأخذ ثأر أمك من ذرية ذلك الطيني، وتنال الشرف أمام كل المملكة.

هز رأسه بالإيجاب، تفككت أعصابه، لا يكاد يرى أمامه:

- أستأذنك عمي في الانصراف وأعدك بعودة حقنا كاملًا.

- أنتظر فوزك على نائل ابن عمك، ولنكتفِ بعد ذلك بلعب صغار الشياطين هذا، ونلتفت إلى مهامنا العظام، لا يتراهن أبناء إخوة إبليس على فرد أو عائلة، فمن إذن يتراهن على توجيه عظام شياطين البشر، مجالس إدارة الحروب والمنازعات؛ المذابح والاغتيالات؟! من سيساعد في بزوغ نجوم تجار أسلحة جدد، وعلماء مجانين ينشرون الفزع من الأوبئة والأمراض؟! كيف سنساعد السحرة على جني المال؛ دون زرع الأحقاد في نفوس البشر.

اجتهد أيهم ليبادله الابتسام، انحنى.

- لا يخفى أمر في المملكة على عمي العظيم.

انصرف والحزن يفتك به، ودَّعه إبليس بابتسامة انتصار واسعة، حضر أبناؤه المختبئون بعيدًا، انحنى الأعور:

- عظيم يا أبي، أعدك أن أساعده بغواية ثريا إن أردت.

وافق الأب، تبعه أخوه مُرّة:

- مولاي العظيم المنتصر.. ألهبت حماسته وكسبت ولاءه.

سأله تِبْر:

- أبي العظيم لمَ أنت سعيد بتعاطفه؟

- ورث قدرات أبيه وصلابة أمه، هو التالي من بعدكم عنادًا وقدرة على الإقناع.. شيطان لا يستهان به، لنحتفل بانتصارنا على أمه.. المؤمنة.

تعالت ضحكاتهم، ردد الوادي الكئيب صداها.

***

فردت أم ساهر الأغطية على ثريا، كانتا شاردتين؛ لم تلحظ إحداهما الأخرى، الأولى حزينة لأجل ابنها، والأخرى تفكر في حلمها الغريب، تنتشي كلما تذكرت تفاصيله المذهلة، سألت نفسها: "لماذا بدا الحلم كحقيقة، أليست الأحلام ترجمة للأمنيات والمشاعر المرغوب فيها؟ هل هذا ما أرغب فيه، ما كل هذه الجرأة لأرقص بتلك الخلاعة؟ بل كيف رقصت أصلًا؟ لا أجيد الرقص، من أين أتى كل هذا الغنج والأنوثة؟ كيف وكيف؟"

- ثريا.. يا ابنتي.
- هه.. أمرك يا أمي.
- ما بك؟
- لا شيء يا أمي.. حلم غريب.
- أخبريني.

- حلم لطالما تمنيت أن يكون حقيقة، كنت واثقة بنفسي.. لا أشعر بالعار من جسدي ولا عذاب ضميري للتعري أمام..

سألتها بتحفز وخبث:

- أمام من؟ زوجك السابق أم زوجك المستقبلي.

ارتبكت، ضحكت:

- لم أتبينه، المهم أنه زوجي.. الأعجب أني أشعر بالقوة والثقة من حينها، أشعر أني إنسانة أخرى..

أمسكت يد أم ساهر، نظرت إليها بامتنان، أكملت:

- أشكر الله أنَّ أحمد طلقني، أثق في حب الله؛ وباختياراته الحياتية لنا.

تنهدت بحسرة:

- نعم إنه يحبكم كثيرًا..

اتسعت عينا ثريا:

- ماذا؟

انتبهت العجوز:

- نعم الله يحب بني آدم جميعًا.

رفعت رأسها إلى الأعلى:

- الحمد والشكر لك يا رب، بدا الأمر شرًّا لكنه الخير كله،

تعرفت إليك يا خالة، عانيت الوحدة منذ وفاة أمي فلا أخت ولا صديقة لي، وعرفت أيهم، تغيرت حياتي كلها، أشعر أني في حمايته وأثق في حبه، لا تتصوري كيف كان زفافنا في الحلم.

- ها قد اعترفت يا شقية أنه أيهم، أنا سعيدة، مولانا رجل بحق، تقي ورِع، وما رأيتِه هو حقيقة.

شهقت:

- كيف ذلك؟

- نعم؛ ألا تعلمين أن ما سيحدث لك خلال عامك ينزل إلى السماء الأولى في شهر رجب؟

قاطعتها:

- شهر شعبان يا أمي..

ارتبكت العجوز:

- نعم هو شهر شعبان.. هل قلت غيره؟!

نعم قلتِ:

- رجب.

ضحكت:

- يبدو أني كبرت وأصابني الخرف.. دعينا نكمل.. تعلم الملائكة بعد نزول صحيفتك بما سيحدث خلال عامك، ونحن نائمون تكون أرواحنا معهم ونعرف ما سوف يحدث في صورة حلم.

قفزت ثريا من رقدتها في سعادة:

- إذن هو تقي بالفعل، كان زفافًا إسلاميًّا.. ومن أحاطوا بنا كانوا ملائكة يلبسون ثيابًا محتشمة بيضاء.. يا ربي الحمد لك.

عانقت العجوز:

- سأطير فرحًا.. كنت أرقص وألبس ملابس لم ألبسها من قبل.

رفعت يدها اليمنى مشيرة إلى بنصر اليسرى:

- وألبسني خاتم زواج كما الأميرات و.. ما هذا؟

اتسعت عيناها، توقفت أنفاسها وهي تنظر إلى أصابع يدها اليسرى.

***

وصل أيهم إلى قصر عمه سقيم، انحنى له الحرس، دخل من الباب الرئيسي طالبًا مقابلته، حضر نائل ابن عمه مبتهجًا:

- ابن عمي العزيز ووزيرنا الأعظم المنتظر مرحبًا بك.. زيارة عزيزة وغريبة.

رد بهدوء:

- نعم هي عزيزة لكنها ليست غريبة، أظنك تنتظرها، أين عمي سقيم؟
- إنه في مهمة أسندها إليه عمنا العظيم.
- أريد التحدث إلى من هو في منزلتي، ليس إلى من يصغرني في المقام، لذا آمرك أن تجيب سؤالي.

رد نائل بنظرة غاضبة، هدر صوت الوزير القادم:

- أين ساهر؟ أعلم أين تحبسه وأستطيع أن أحرره، لكنك أخطأت، رهاننا لا يشمل أفعالك الصغيرة وإلا خطفت كل مساعديك وقتلتهم، لذا آمرك؛ أصلح خطأك، أنتظر ساهرًا في موكب وإلا ..

نظر إليه شزرًا، ردها أيهم بنظرة تحذير قوية، وانصرف.

***

وصل إلى قصره، غضبه لخطف ساهر يعصف به، صوت أمه يناديه منذ حديثه مع عمه، وجد أم ساهر بانتظاره، ارتجت حوائط القصر بارتفاع صوته، علت همهمة العبيد والجواري خشية غضبه غير المعتاد:

- ما الذي أتى بك؟ ألم آمرك بالبقاء معها وأن لا تتركيها؟

ارتعدت، ركعت أمامه:

- أعتذر مولاي.. تركتها بعد تشديد الحراسة، أرسل شيتو إليهم تعزيزات من عفاريت الجن، هناك أمر جلل.

هز شيتو رأسه بالإيجاب.

- ماذا حدث؟ أجيبي بسرعة.
- وجدت ثريا خاتم زواجكما في إصبعها، أغشي عليها.

رفعت يدها بالخاتم إليه، مأخوذًا بما حدث:

- تركتها بعدما ختمت على رأسها وأذنيها، وكذا فعلت بالأطفال، جئتك لترى ماذا ستفعل؟

شعر بثقل الهموم عليه، نظر إلى شيتو:

- كيف حدث ذلك؟ من الخائن الذي وضع الخاتم بإصبعها؟ أيكون أحد حراس ثريا أم ..؟
- لا أظن يا مولاي، اختبرت كتيبة الحرس بكاملها، أظن الخائن هنا في القصر، بل وحضر حفل الزفاف.

- أريد رئيسة الجواري ورئيس العبيد وقائد حرس القصر.
- دع الأمر لي يا مولاي وسآتيك بالخائن.

أشار إليه بالموافقة، وإليها بالرجوع إلى ثريا لتوهمها أن رؤية الخاتم ما هي إلا حلم، دخل غرفته، ألقى بنفسه على سريره الزئبقي، عقله مشتت بين حوار عمه، وخطف صديقه، والخائن، وذكريات أمه قبل وفاتها؛ كانت جميلة رقيقة، لا يتذكر مرضها، لكنه يتذكر جيدًا حزن أبيه الجريح على وفاتها.

دخلت ريڤال متوددة، انحنت، رفع رأسه نحوها:

- مولاي ومعشوقي.. اشتقت إليك، التزمت بأوامرك كلها؛ لم أقرب الدم منذ غضبت عليّ، لكني أراك منشغلًا عني.

أكملت في دلال وهي تتمايل:

- أم كرهتني؟

تداخل وجهها مع وجه أمه ووجه ثريا، زفر أنفاسه الحارة، ألقى برأسه ثانية على السرير، اقتربت منه:

- مولاي ما بك؟
- لا شيء.. اتركيني الآن لا أريد..

تناهى إليهما صوت نفير مختلف عن صوت نفير قصره، دخل شيتو، وخلفه ساهر شاحب اللون، انحنيا، طلب من ريڤال الانصراف، ألحت عليه في بقائها، تركها.

التفت إلى صديقه:

- هل أتيت في موكب؟

حرك ساهر رأسه بالإيجاب.

- هل آذوك؟

رد مرتبكًا بعيون زائغة:

- ما بك؟ لست على ما يرام.

أجابه حريصًا ألا تلتقي عيناهما:

- لا شيء يا مولاي.. أريد فقط أن أنام.

بحثت عيناه عن سبب ارتباك صديقه، تفحصه من رأسه إلى قدميه، وبنظرة ذات معنى إلى عيني شيتو فهم ما يريده مولاه، فرد بأخرى تفيد الفهم وسرعة التنفيذ.

انصرف ساهر ساهيًا عن تحيته مما زاد قلقه، أعاد على ريفال طلب الانصراف، أبت وأقبلت تتحسسه، مررت شفتيها على كل جسده، لم يشعر بمداعباتها، مشغولة نفسه، مأخوذة بأحداث ليلته مع ثريا وشغفها به، متعجبًا من اختلاف مشاعره تجاهها عن مشاعره تجاه جنياته العاشقات، غابت عنه روحه لثوانٍ؛ شعر بوجودها بين يديه، كأن شفتيه ما زالتا تلامسان شفتيها، وتذكر رائحة طيبها فانتفض، قائلًا:

- رائحتها هي رائحة أمي، أظنها رائحة المؤمنات بربهن.

انتفضت ريفال متسائلة، لم يرد، انصرفت غاضبة، عاد يسأل نفسه: "كانت أمي طيبة.. هادئة مستكينة مثل ثريا.. إبليس يقول هم السبب.. من السبب؟ من قتل أمي؟"

دخل شيتو وهو غارق في تساؤلاته:

- أراك مهمومًا، أأغضبك الملك في مقابلته؟
- بل أحزنني، لا أذكر مرض أمي قبل موتها، كانت جميلة كما هي لا يبدو عليها مرض.. أتذكر أنت؟

تلجلج:

- نعم يا مولاي؛ كانت مهمومة قلقة لخروج أبيك في الحرب، والقلق والخوف قاتلان.
- ماذا تقول أيها المخرف؟ أتهزأ بي؟! قل الحقيقة، عرفت كل شيء.

تغير لونه:

- ماذا تقصد، عرفت ماذا؟ ومن الذي أخبرك؟
- إبليس.
- إبليس الملك؟
- نعم إبليس الملك، وهل هناك إبليس آخر؟! جدة ثريا أغوت أمي بالإيمان برب آدم وهجرت أبي وخاصمته، سكنها الهمُّ والغمُّ وماتت، ولكني لا أذكرها وقد مرضت، أتذكر مرضها؟

- نعم نعم.. أذ.. أذكر كانت مهمومة بالفعل.. الهم قاتل.
- أنت تكذب.. قل الحقيقة.
- يا مولاي.. ذكرى أمك تؤلمني وتحزنني، أنا من قمت بتربيتها..
- متى مرضت؟ لا أذكر.
- الهم قاتل صامت يا بني لا تبدو له علامات مرض، ماتت فجأة وهي نائمة.
- أقسمت أن أثأر لأمي وأبي، لن أهدأ حتى أنتهي من هذا الأمر.
- يا بني، دع هذه الأمور، ستفرح روح أمك عندما تتولى منصبك، دع الثأر والحزن، لن يعيد الثأر أباك وأمك.
- ماذا تقول؟ أعيش بنار حزني وبنت آدم تتمتع بحياتها؟
- تقصد ثريا، وما ذنبها؟ جدتها أغوت أمك؟ هذا هراء، أمك في الأصل من المؤمنين بالله.

نهره غاضبًا:

- اصمت أيها المخرف، لا بد وأنها حرَّضت أمي على هجر أبي وسببت لهما الحزن، وإلا قتلتك أو سجنتك في سجن سليمان.

خفض رأسه، اعتصره الحزن:

- تهددني بالقتل يا مولاي! لا يوجد في الكون كله من يحبك مثلي، اقتلني يا مولاي، وأسألك بروح أمك الطاهرة لا تسجنِّي؛

فالموت أهون ما دمت تستطيع الاستغناء عني، اقتلني فقتلي أفضل من عذاب السجن.

خفض أيهم عينيه نادمًا:

- لا تحزن، أنت أهم جني في حياتي، لا تجعلني أرى تلك الدموع في عينيك.

جفف دموعه، خرج حزينًا، لمح ريفال تخرج خلسة بلا حرس أو إذن منه كعادة كل الجواري والعبيد، أرسل من يتبعها؛ طارت إلى الصحراء، حتى موقع سجن سليمان، استقبلها كبير حرس نائل مرحبًا.

***

غفا أيهم ثانية؛ عاودته الأحلام المتداخلة، كأنها الهلوسة، بين أمه وثريا وإبليس حتى ريفال، أمه تمنعه من قتل ثريا، إبليس يحرضه، أبناء ثريا يصرخون، ريفال تنظر بشماتة.

دخل شيتو صارخًا:

- استيقظ يا مولاي.. استيقظ.. إنها مصيبة.

هب من نومه فزعًا، ولا يعرف بدقة سبب فزعه، أهو صراخ شيتو أم كابوسه المفزع.

*****

الفصل العاشر

الخيانة

قبل الآن بساعة.. في أثناء نوم أيهم..

عادت أم ساهر إلى بيت ثريا تحمل بعض الخضر والفاكهة وجدتها مع أطفالها نائمين، أخبرت رئيس الحرس بأوامر مولاها؛ بتشديد الحراسة ومراقبة الحرس جيدًا لاكتشاف الخائن، في أثناء طهوها الطعام حضر أحمد لرؤية الأطفال، فوجئ بها كذلك هي الأخرى، الخطة الموضوعة ألا يحضر الآن، ماذا حدث؟

- من أنت؟
- أنا أم ساهر قريبة لأم ثريا الله يرحمها، أتيت لأساعد ثريا فهي مريضة.
- ما بها؟ وأين الأولاد؟
- حادث بسيط، الكل نائم سأوقظها، لكن لا تؤاخذني أين كنت الفترة الماضية؟ الأولاد يسألون عنك.
- هذا ما جاء بي ولولا أحلام غريبة أقلقتني بخصوص أبنائي ما أتيت، وها هي أحلامي أجدها حقيقة، لا بد أنهم منزعجون من الحادث، كانوا معها؟

- لا الحمد لله، كانت وحدها، سأوقظهم.
- لكني لم أسمع من ثريا عنك من قبل.
- يا بني.. الدنيا تلهينا بأحداثها.

أغلقت باب الغرفة قبل أن تفتح النافذة، طلبت من حارسها إبلاغ رئيسه بضرورة تعريف مولاه سريعًا بقدوم أحمد، نسيت النافذة مفتوحة، قرأت تعويذتها لإزالة أعراض الختم على رأسها، نهضت فزعة تبحث في أصابعها عن الخاتم وتسأل عنه، ردَّت متعجبة:

- أي خاتم؟
- خاتم العرس يا أم ساهر.
- لا أفهمك، دعينا من الأحلام والكوابيس وأخبريني ماذا سنفعل مع طليقك؟
- أيقظي الأطفال ليراهم، لكني رأيت الخاتم، وأنتِ ..؟
- يا ابنتي لا أريد أن يبقى طليقك طويلًا حتى لا يغضب مولانا.

غشيهما الارتباك؛ بسبب تسارع الأحداث، وبسبب الخاتم وحقيقته.

فرح الأولاد بمقابلة أبيهم، تعلقوا برقبته، بكى وبكت أم ساهر، كسبت ودَّ أحمد واحترامه.

***

اقتربت جنية رائعة الجمال، سألت الحارسين المكلفين بمراقبة النوافذ الأخرى بطريقة لا تخلو من الدلال:

- أنا من جواري الأمير نافذ، تخلفت عن موكبه ولا أعرف طريق عودتي.

وقف الحارسان مبهورين بجمالها الذي يفوق قوة تحملهما؛ تباريا في وصف الطريق لها، هجم من خلفهما محاربان تابعان للأمير قسورة فقتلاهما بأسلحة من عهدة سقيم الحاكم لسجون المملكة.

هجم عبيد الريح والعواصف على كل النوافذ؛ اقتحموا المنزل حاملين أقوى الجن السحرة وأمهرهم من معلمي وادي برهوت وحماة سجن سليمان.

ارتطمت النوافذ بعضها ببعض، فزعت ثريا والأولاد، اختبأت أم ساهر بالمطبخ، شعر أحمد بالاختناق، خاطبها باقتضاب:

- سآخذ الأولاد معي يومين وأحضرهم لك ثانية لا تخافي.
- هذا لن يحدث أبدًا.

ألحَّ الأطفال حتى وافقت، رفض انتظار تغييرهم ملابس النوم، اصطحبهم وغادر خائفًا كأن هناك من يطارده.

دخلت المطبخ شاعرة بضيق وخوف لا تعرف مصدرهما، وجدت ذيل تمساح ذي حراشف حادة، ممتد من أسفل جلباب أم ساهر، وقدمين لزجتين ذواتي مخالب مدببة طويلة.

صرخت، التفتت الأخرى إليها متعجبة من صراخها، فوجئت ثريا بوجه ممسوخ ذي عيون واسعة جاحظة تقطر دمًا، وفم واسع برزت منه أسنان وأنياب خضراء سال اللعاب منها.

تراجعت ثريا إلى الخلف، دمدمة صمَّت آذانها، صرخات مفزعة، بأعجوبة تذكرت آيات قرآنية، قرأتها في وجه المسخ؛ اشتعلت النيران فيه، هرب جن العواصف في البداية، ثم عادوا بعد سقوطها مغشيًا عليها، غذى جن الريح النار حتى احترق المسخ تمامًا، طار الرماد المتبقي من الحريق، كسا الحوائط باللون الأسود.

اقتحم قائد الحرس والباقون معه المكان لإنقاذها، زاد عبيد الريح من قوتهم، هبت عاصفة ترابية، أطاحت بالقائد ومن معه جانبًا، حمل العبيد السحرة وغادروا.

***

دخل شيتو إلى حجرة أيهم غاضبًا مهمومًا؛ أبلغه بخيانة ريڤال، غادر فراشه مسرعًا، أمره بتجهيز أكبر قوة عسكرية ممكنة من حراسه وحراس الملك الأسود المحاربين ونافثي النار، وتجهيزهم بأسلحة أبيه المخبأة في كهف أنشأه بركان القرابين في المحيط، أسرع شيتو للتنفيذ.

ارتدى دروعه المناسبة لما يتوقعه، اقتحم ساهر الغرفة بلا استئذان، أوقفه الحرس، قيدوه، دفعت دموعه المنهمرة أيهم لأمرهم بإطلاق سراحه، سأله باهتمام:

- ماذا حدث؟
- ثريا أحرقت أمي.
- كيف؟ ولماذا؟
- سحرة برهوت حملهم جن العواصف مع حرس قسورة إلى هناك، أظهروها لها بشكلها المخيف، قرأت قرآنهم فاحترقت أمي، لا بد أن هناك خيانة، والآن أريد ثأر أمي وجئت أستأذنك وأنتظر مساعدتك.
- مساعدتي في ماذا؟ أين قائد الحرس؟
- أظنه في سجن سليمان، أريد الإذن والمساعدة للدخول إلى ثريا، نائل وحرسه يحيطون بالبيت، ساعدهم جنود عشيرة الجن الأزرق ولا تنسَ أن أباك قتل ملكهم.

بارتباك وجزع سأله:

- ألا تعلم حالها الآن؟

صرخ غاضبًا:

- ما لك خائفًا عليها؟! أنا أريد ثأر أمي منها وأنت تسأل عن حالها!
- ثأر أمك عندي، لا تخف.
- لا، أنا خائف بالفعل لأنك جزعت لأمرها، ماذا دهاك أيها الوزير؟! عشقت المؤمنة بغير إبليس مثل أمك، يبدو أنكم تحبون الأغبياء.

ضربه بصاعقة، حرقته، ألقته أرضًا.

- تأدب أيها الغبي إنها أمي لها كل التوقير والاحترام، فلا تنسَ.

أول مرة يستخدم قدراته ضد صديقه، حاول النهوض ولم يقدر، حمله الحرس، أكمل ارتداء دروعه غاضبًا من صديقه:

- حسنًا اذهبوا به إلى الطبيب وليبقَ هنا وإن حاول الهرب كبِّلوه.

انحنى كبيرهم:

- أمر مولاي.

بصوت واهن تحدث ساهر، أمرهم أيهم بالانتظار:

- ماذا تقول؟
- كدت تقتلني والآن تأمر بتكبيلي لأجلها.
- خطأ، عاقبتك فقط لأنك أهنت أمي.
- كلا؛ حبك واضح، وإلا نفذت رهانك، لماذا لم تنفذه إلى الآن؟
- أنا الأمير، أختار الوقت المناسب لي، لا الوقت الذي يختاره أبله مثلك.
- إذن سأخبرك بمن قتل أمك، لم أخبرك من قبل حتى لا تتعذب لأنك صديقي الذي كنت أحبه، سأخبرك لتشعر بألم وعذاب يثيرهما رغبتك في معرفة القاتل ولن تستطيع الأخذ بثأرك كما تمنعني الآن، مُر حرسك بالخروج ونادِ شيتو فهو يعلم ويخونك ولا يبلغك.

أشار إلى الحرس، خرجوا، ابتلع لعابه:

- إنه.. إنه إبليس العظيم.

انتفخ وجه أيهم، تغير لونه، صرخ مناديًا خادمه، حضر مسرعًا، انحنى متلفتًا حوله لا يفهم شيئًا:

- أمر مولاي، ماذا حدث؟
- أجب ولا تكذب وإلا قتلتك بالفعل.

عاود الصراخ:

- من قتل أمي؟ انطق.
- مولاي هذا ليس الوقت المناسب، نائل والحرس وجنود الأسود ينتظرون.
- انطق وإلا قتلتك بالفعل.

لم يعبأ بصدق نية مولاه:

- قلت لك سابقا أنّ ..
- كاذب، أنت كاذب، انطق بالحق أيها المخرف، هو إبليس عمي أم من؟ من؟
- من قال لك هذا كاذ ..

رد ساهر بوهن:

- لست كاذبًا، عندما خُطِفت، سمعت الحراس يتحدثون بالأمر، وعندما سألتهم شعروا بالقلق والخوف، والدليل يا شيتو الجبان أن قلادتها التي تحمل اسم ربها قد اختفت من رقبتها يوم وفاتها، لا بد أن إبليس أخذها.

ثقلت الدموع على جفون أيهم، انهمرت، توسل:

- أسألك بربك يا شيتو أخبرني الحقيقة، أنا أعلم أنك مؤمن بغير إبليس، أجبني.

تألم ساهر من حروقه، أمر الحرس بحمله إلى الطبيب، حملوه، ذهبت الصدمة بعقله فضحك وبكى في آن واحد، حدث صديقه:

- أرني كيف ستأخذ بثأر أمك أيها الأمير.

التفت شيتو:

- مولاي اذهب لحربك الآن وعند عودتك سأخبرك.

- بل الآن، نائل سينتظرني مهما تأخرت، وأظنه خطف ساهر في السابق ليبلغني بما سمعه عن عمد من الحرس، شيتو قد لا أعود أخبرني الآن بالحقيقة؛ من قتل أمي؟

- مولاتي تنتمى إلى قبيلة مؤمنة بالله، حاربها أبوك حتى قتلهم جميعًا، وأخذ أمك أسيرة، أحبها حبًّا عظيمًا حتى إنه تركها على إيمانها، كنت مصابًا والوحيد المتبقي من القبيلة، وافقت أمك على الزواج من أبيك مقابل ألا يدع إبليس يقتلني وأن يعالجني، وافق أبوك فورًا على أن أرتد عن إيماني، أظهرت لهم ارتدادي عن الإيمان بالله، وعشت بجوار أمك أرعاها، في البداية كانت رافضة لأبيك، والغريب أن أباك تحمل رفضها، وبالمعاملة الطيبة وحبه لها وتعاطفه معها وشعورها أن لا عائلة لها رضيت به زوجًا وأنجبتك، وكل ذلك كان ضد رغبات إبليس، حتى خرج أبوك إلى حرب أخرى، علمت أمك أن الحرب ضد قبيلة مؤمنة أخرى، قتلهم جميعًا، انهارت، بكت كثيرًا، مرضت وهجرت أباك، وما لبث إبليس الرجيم أن أمره بحرب أخرى مع قبيلة الملك الأزرق وكانت حربًا عظيمة وأظنه دبر سفره إلى الحرب للتخلص من أمك.

بللت دموعه أرضية الغرفة:

• كنت في غرفتك الملاصقة لغرفة أمك، سمعت بعض الأصوات، من زاوية خفية، رأيتهم والسحرة يزيلون أثر الذبح عنها والسلاح بيدهم منحوت عليه شعار إبليس، خفت عليك، خبأتك في الحديقة حتى رحلوا، كانت تحتضر، أبلغتني بقاتليها، وأمرتني ألا أخبر أحدًا حتى أباك لئلا يقتلوك وقد كان، أما القلادة فقد اتهم إبليس السحرة بسرقتها فقتلهم، والحقيقة أنها معي، نسوها لتسرُّعهم، أخفيتها داخل بركان القرابين الذي هدأ من حينها إلى الآن، وهم يحسبون أن هدوءه نتيجة ازدياد قرابينهم من أكباد البشر المقتولين التي تلقى في داخله.

تشاركا في البكاء:

• سامحني يا بني خفت عليك، عاد أبوك بجرح عظيم، زاد عليه ألم فراق أمك، ولم أبلغه؛ لأنه لا يقدر على أخذ الثأر من إبليس.

• لماذا؟

• لأنه من المنظَرين، لن يتمكن أحد من قتله.

• ماذا تعني؟

• عندما تعود سأبلغك بكل شيء.

• وقلادة أمي؟

• سأحضرها إليك.

- الآن.
- مولاي الوقت..
- الآن.

بكى كما لم يبكِ من قبل حتى يوم وفاة أبيه، ماذا سيفعل؟ كيف سيثأر، أين ثريا الآن؟ مشى في الغرفة جيئة وذهابًا، يلملم شتات عقله ونفسه، أتى شيتو بقلادة غريبة لم يرَ مثلها من قبل لا في شكلها ولا في إبداع صنعها، تتدلى منها كلمتا: "الرحمن الرحيم" متداخلتين منقوشتين بالفضة الملتصقة بقطعة ياقوت مستديرة ضخمة، أضاء لون الفضة اللامع، برز اللون الأخضر المحبَّب لأمه من الفتحات.

قبض على القلادة بكلتا يديه، ضمها إلى صدره، عاودا البكاء، جفف دمعه، نصب قامته، ارتدى القلادة وأخفاها تحت ملابسه؛ خرج إلى جيشه، تبعه شيتو دون أن يلاحظ.

*****

الفصل الحادي عشر

الأسر

وصل بموكبه إلى بيت ثريا وقد اقترب المساء، أعلن البوق عن وصوله متحديًا ابن عمه، أثار عبيد الريح الأتربة حول المنزل لمنع الرؤية عن جنوده، أطلق جنود الأسود أسهمهم محملة بأسراب ضخمة من جراد سام مدرب يتتبع طاقة الشياطين دون رؤيتهم، أنهت حياة أغلب جنود نائل، دارت حرب عالية القدرات بين جنود الملك الأزرق والملك الأسود، بين نافثي النيران ومرسلي الصواعق، تولى المدمدمون تكسير زجاج النوافذ بذبذبات أصواتهم، دخل من خلالها أيهم ومحاربوه.

في الداخل دارت رحى حرب طاحنة، بين مدمدمين ترتج الجدران لأصواتهم، صرير الجراد، صفير الريح، والأتربة العالقة بالهواء، ظنها ساكنو البناية زلزالًا أو أن البناية ستسقط، اندفعوا إلى خارج شققهم في حالة من الهرج والتدافع وصراخ النسوة المختلط بصراخ الجن الجريح والمقتول.

بحث أيهم عن ثريا فرآها ممددة على الأرض في حجرتها، وضع نائل قدمه فوق رأسها، نظر إليه بتحدٍّ:

- خذها إن استطعت.

• صدقني سآخذها وآخذ معها غرورك وتعاليك، حتى إن قتلتني لن تكون فائزًا بالرهان، فليس هذا ما اتفقنا عليه.

• إلى متى أنتظر تنفيذ رهانك، كانت هناك الكثير من الفرص وتركتها بإرادتك لأنك أحببتها.

• لم أحبها، ولم تأت الفرصة.

• تكذب.. بدليل هجرك ريڤال.

• الخائنة؟! أوهمتك لأنها غارت، سأعلقها من رموشها الجميلة.

لمح أيهم طيف شيتو، نادى كأنه يحدث ابن عمه:

• أين أنت الآن يا شيتو لتخبر ابن عمي بما أعددناه لها من عذاب؟

أكمل:

• أين محاربوك يا نائل؟

برز شيتو من خلف نائل، أشار إلى أيهم علامة على انتهاء جنوده وهروب الباقين أحياء، ثم هرب إلى الطرف الآخر من الحجرة، لاحظ نائل نظره إلى خلفه، شرع بيده للخلف محدثًا نارًا ذات شهيق عالٍ، نشبت في الستائر، عاجله أيهم بسلاح من معدن بركاني متقد على شكل نصف دائرة حادة شقت نصفه الأعلى عن الأسفل، سقط قتيلًا نازفًا دمًا أزرق كريه الرائحة، خرج حاملًا ثريا إلى عربته، انفجر المكان محدثًا دويًا قويًّا بعد خروجه.

في الطريق إلى قصره، أُحاط بموكبه عدد لا قبل له بهم من جنود إبليس وأعوانه من القبائل، على رأسهم سقيم وابنه قسورة، وقعوا بالأسر بعد حرب قصيرة غير متكافئة.

*****

أفاق؛ وجد نفسه في سجن قصره، بجانبه شيتو، وثريا غائبة عن الوعي:

- شيتو ماذا حدث؟
- لا أدرى يا مولاي، صعقوك بشحنة عالية، هناك الكثير من الخونة، وكادوا يقتلونني لولا أن هناك أمرًا من إبليس بالإبقاء علينا.
- وجنودي؟ والعبيد أين هم؟
- من خان تبعهم.. ومن حارب معنا قُتل.
- وجند الملك الأسود؟
- خيرهم سقيم بين الموت أو التخلي عنك، اتهمك بالإيمان بالله وأنك خدعتهم، غضبوا وتخلوا عنك، جند سقيم وقسورة سيطروا على القصر.
- أينتقم سقيم مني لقتل ابنه؟
- أخشى عليك من انتقامهم، مولاي أنا جني عجوز وثريا

آدمية لا شأن لك بها.. إن خيروك بين قتلك أو تخليك عنا فليكن يا مولاي.

- لن يحدث ذلك أبدًا، أنا ابن الوزير الأعظم، إبليس يخشى اللوم ومعايرة القبائل له إن قتلني.
- لا يا مولاي، لقد أخبروا الجميع أنك آمنت برب العالمين.
- ماذا؟ ومن رب العالمين؟
- هو ربي واسمان من أسمائه منقوشان على قلادة أمك، سيتخلى الجميع عنك.
- لكني لم أومن بربك.
- فلم ارتديت القلادة؟
- بها رائحة أمي.
- بها اسمان من أسماء الله.

تأوهت ثريا، أسرع إليها، أفاقت، تلفتت حولها، صرخت، حاول تهدئتها، زاد صراخها، قفزت إلى باب السجن، دقت عليه بشدة، حتى تألمت يداها، بلا مجيب.

- أين أنا؟ ومن أنتم؟

نظرت إليهما بخوف، تكوَّمت في ركن الحجرة، بكت، اقترب أيهم منها بهدوء، تعالى صراخها ثانية، ثبت في مكانه حتى هدأت، طلبت ماء، فطلب من السجان ماء، تعجب السجان من الطلب ثم

رفض، هدده بأن الملك أمر بالإبقاء عليهم أحياء، اضطر إلى إحضاره مع بعض الطعام، سألته:

- ملك من؟ أين نحن؟

لم يرد أحد عليها، شربت، اقترب منها، انكمشت على نفسها.

- لا تخافي، لست مثل أم ساهر.

أصيبت برجفة شديدة، لم تستطيع معها الجلوس، تمددت ذاهلة، ثبتت عينيها على سقف الحجرة، اعتذر لها عما سببه لها من ألم، وعن المأزق الواقعين فيه، بعد وقت طويل جلست، كفكف دموعها، سألته:

- أي أنك لم تحبني كما أخبرتني؟

ضحك شيتو، انتبهت لوجوده، عادت إلى أيهم:

- من هذا؟
- إنه شيتو، هو معلم أمي ومن قام بتربيتي.
- معلم ودادة، كيف ذلك؟

ضحك ثانية:

- عالمنا ليس كعالمكم.. عندنا كل شيء ممكن.
- الوقت ليس مناسبًا لما تقوله يا شيتو.

التفت ثانية إلى أيهم:

- أي عالم يقصد؟

تدخل شيتو:

- مولاي لا وقت لأي كلام آخر، لا بد أن نشرح لها؛ اسمعي يا ابنتي، أنت الآن في عالم الجن، أنا جني، ومولاي يتبع الشياطين ونحن الآن محبوسون في قصر ..

فقدت وعيها ثانية، صرخ فيه:

- قلت لك ليس الوقت مناسبًا.

- مولاي سيأتي إبليس بعد قليل ويقتلنا، وجب أن أخبرها لتطلب الرحمة من ربها وتنطق الشهادتين، تسألك عما إذا كنت لم تحبها، حرام عليك خداعها أكثر من ذلك، إنها إنسية مسكينة طيبة، أيرضيك أن يفعل أحد هذا بأمك؟ لا تنسَ أنها مثلها.. مؤمنة بالله.

رمقه بنظرة نارية، تابع شيتو:

- صدقني يا مولاي قد اقتربت النهاية وأريدها أن تعرف الحقيقة كاملة.

قرأ بعض الآيات القرآنية على رأس ثريا، أفاقت هادئة، تعجب أيهم لما يراه:

- ما هذا السحر يا شيتو؟ إنها تلك التعاويذ، كنت تنطق بها لتصرف الجواسيس عن القصر، أليس كذلك؟

• لا يا مولاي إنها كلمات الله وليست تعاويذ جن أو سحرة، كانت أمك تقرؤها عليك لتحفظك من إبليس وجنوده.

نقلت عينيها الشاخصتين بينهما غير مصدقة:

• أنتما جنيان؟

• أنا جني مؤمن مثلك، لكن مولاي أيهم شيطان قريب لإبليس.

بصوت مبحوح حاولتْ الصراخ لم تستطع، سألت مستنكرة:

• إبليس؟! إبليس الملعون الذي نعرفه؟ الذي ذُكِر بالقرآن؟

حرك شيتو رأسه بالإيجاب:

• نعم وبالتوراة والإنجيل، عليه لعنة الله، يا ابنتي أظن أنه سيقتلنا فتيممي وصلي لربك وسامحي مولاي؛ إنه لا يعلم الحقائق.

نظرت ثريا إليه مطاطئ الرأس، بكت:

• لن أسامحه، طعنني في قلبي، سأُقتل وأترك أبنائي بسببه، من المؤكد أنه يعلم فأنت مربيه.

• لم أعلمه خوفًا عليه من عمه إبليس.

شهقت:

• عمه؟! وماذا تتوقع من شيطان ابن أخ لإبليس.

• أمي مؤمنة مثلك، وصدقيني قد أحببتك لأنك وديعة حنونة

مثلها.

- وما يدريني أنكما صادقان.
- الحلم؛ أتذكرينه؟
- كيف عرفت بالحلم، أخبرتك أم ساهر؟ لكن الخاتم كان حقيقة، رأيته في الواقع.

رد شيتو:

- نعم حقيقة، خانته جارية من الجواري ووضعته في يدك.

سألت أيهم بسخرية:

- ولماذا لا تؤمن ما دمنا سنموت، أم أن إبليس لا يقتل أقاربه؟
- يقتل حتى أولاده إن آمنوا.
- لذا لا تؤمن؟
- لا أومن بإله لا أعرفه، ثم إنه إله إبليس وقد ظلمه، طرده من الجنة لأجل أبيكم.
- الله لا يظلم أحدًا، هو خالقنا جميعًا، طرده- ﷻ- من الجنة لغروره وتكبره على أمر الله، لو طلب عمك المغفرة لغفر الله له.. لتنطق يا شيتو، ما لك ساكتًا؟
- أتذكر يا مولاي عندما قلت إن عمك غبي؟ هو غبي بالفعل، قد عرف ربه وقدرته، فلماذا يتحداه؟ لِم لَمْ يطلب المغفرة وهو يعلم أنه غفور رحيم؟

ساد الصمت، تذكرت أولادها، ناحت، دعت ربها ألا يقتلها إبليس، رد شيتو:

- هي أعمارنا، سنموت في الوقت المحدد لنا، الموت الذي تبكين خوفًا منه هو انتقالنا من عالم الجن والإنس الظالم إلى عالم لا ظلم فيه، المؤمن الحق لا يخشى الموت.

قال أيهم متعجبًا:

- ولكنك خشيت عليّ من الموت!
- نعم، ولكن لا أخشى على نفسي من الموت.

ردت مؤكدة:

- لا بد أن عملك طيب.
- لا أظن أن خضوعي وخوفي على مولاي من عمه وعدم دعوتي له إلى الإيمان بالله عمل طيب، لكني أثق بغفران الرحمن الرحيم.

تحسس أيهم تحت قميصه:

- هذان الاسمان المكتوبان على القلادة.

أخرجها، خلعها، علقها في عنقها.

- هذه قلادة أمي لتصدقي أنني أحببتك، إن عشنا سأزورك لأتمتع برؤيتها وإن قُتلنا، فلتموتي وهي برقبتك أنت أولى باسم ربك، فنحن مطرودون من رحمته.

- طرد إبليس لكنه لم يطردك.
- أنا ابن أخيه.

اقترب شيتو منه:

- كلامها حقيقي لقد طرده؛ لأنه تحداه بعدم السجود لآدم، ولم يطلب الرحمة ولا المغفرة.
- ولماذا يذله ويطلب منه السجود لمن هو أقل منه؟
- مولاي أتحب أن تذلني؟
- لا بالطبع، فأنا أحبك.
- كذلك الله يحبنا ولا يستمتع بإذلالنا، لكنه كان يريد البرهان على طاعته، وقد سجدت الملائكة النورانيون لآدم الطيني؛ لأنهم مطيعون سجدوا حبًّا لله، النور أم النار يا مولاي؟
- النار أقوى.
- النور أجمل، فإذا طلبت مني الآن السجود لإبليس سأعلم أنك تريدني أن أسجد لتنقذني من القتل أي لحكمة في رأسك، أليس كذلك؟
- نعم.
- كذلك الله؛ لحكمة لديه طلب السجود لآدم وسقط إبليس في الاختبار، بل وتحدى الله ﷻ. إذا تحديت عمك الآن سيقتلني فورًا، ألم أقل لك إن إبليس من المنظَرين؛ معناها أن الله أمهله إلى

يوم القيامة، أعطاه الفرصة ليستغفر ويعتذر لكنه غبي كما كنت تقول دائمًا، وهذا هو الفارق بين الخالق الذي يحبنا ومدعي الألوهية.

دمعت عيناه وأكمل:

- أتعلم أن كلمة غبي كانت كلمة أمك المعتادة عن إبليس مثل كلمتك تمامًا؟ إذا أمرتني ورفضت طاعتك ستقتلني؟
- لا، لكني سأغضب عليك وأمهلك.
- أهكذا يكون الله ظالمًا؟
- لا.. إنه رب مُحِب، وما معنى كلمتي القلادة؟
- إنه يرحم عباده جميعًا حتى غير المؤمنين به، ومهما أخطأوا إلا إبليس وأبناءه ومن تبعه، ومن عاد إلى الله دخل في رحمته مثلك يا مولاي، إنه الحب الحقيقي، حبك ورحمتك لي ولثريا جزء من حب الله ورحمته.
- وإذا قتلني إبليس؟
- سيرحمنا الله جميعًا، أثق بوعده لنا بالرحمة.

نظر إلى ثريا:

- أما زلت خائفة؟ لم تكن أمي تخاف الموت.

حركت رأسها بالنفي، وصل إلى سمعهم صوت نفير، سألت:

- ما هذا الصوت؟

رد شيتو غير مكترث:

- صوت نفير موكب إبليس.
- سيقتلوننا الآن؟

رد أيهم بثقة:

- اهدئي، لا أظن أن إبليس سيحضر هنا.
- لا أريد أن أراه.

طلب شيتو منها الهدوء لتتحمل رؤيته، نادى السجان بصوت غليظ:

- مولاي إبليس العظيم ملك ملوك الجن والشياطين.

فُتح باب السجن، دخل إبليس، سقطت ثريا أرضًا مفتوحة العينين لا تنطق، دخل مختالًا يحوطه بعض أبنائه وإحدى السعالي من بناته، وخلفه سقيم وقسورة. وجَّه حديثه لابن أخيه:

- ابن أخي، والوزير الأعظم لمملكتي، لا أتصور أن ما علمته قد صدر منك، جئت إليك بنفسي لأسمع نفيك لما حدث ولتتقلد منصبك وتتزوج ابنتي.

- بل إنها الحقيقة.. أنا قتلت نائلًا فقد حاول قتلي وأنهى الرهان على غير اتفاقنا.

- لا أسألك عن هذا، بل أسأل على قلادة أمك التي ترتديها وتؤمن بها، وتكفر بي وأنا ربك.

- أمي التي قتلتها؟

ضحك، ارتجت حوائط السجن لصوته:

- نعم قتلتها لأنها لم تؤمن بي، كما سأقتلك إن لم تجبني، وسأقتل كل أمثالك وأخرب حياتهم وأخسرهم آخرتهم إلى يوم يبعثهم ربهم، ألم يخبروك أنني من المنظرين؟ أين القلادة؟

- لا أرتدي قلادة.

- لا إنها هنا أشعر بها، وأشم رائحة الياقوتة، إنها من الجنة التي حُرمت منها بسبب أمثال أمك.

التفت إلى ثريا الممدَّدة على الأرض، مد يده إلى عنقها، حاول أيهم منعه، أصابته صاعقة من عين عمه، قذفت به إلى الحائط، ارتطم به، سقط أرضًا، سأله متعجبًا:

- جننت يا ابن أخي؟! أكان ما فعلته حبًّا لثريا أم لرب قلادتك؟

- رب قلادتي.

طالت يد ابنة إبليس، التفت حول عنقه، اختنق، صرخ شيتو طالبًا الرحمة من إبليس لابن أخيه، نالته صاعقة من أحد أبنائه، سقط أرضًا.

- اطلبها لنفسك أيها المؤمن أم أنك تعلم أنك ميت لا محالة.

صاح غاضبًا:

- هكذا المؤمنون دائمًا؛ يُؤْثرون غيرهم على أنفسهم.. أغبياء.

مد يده لينتزع القلادة من عنقها، ارتج القصر فجأة، تبعته صرخات الحرس:

- زلزال اهربوا.

صوت فوران عظيم لبركان القرابين الصامت لسنوات، عم الصراخ والهرب من القصر، أفلتت السِّعلاة يدها عن عنقه؛ طارت مع أبيها وإخوتها، حاول أيهم حمل ثريا وإفاقة شيتو.

طار سقيم وقسورة، انتظرا في الأعلى يشاهدان بشماتة سقوط الحمم على القصر الذي ينطبق بعضه على بعض كمنديل صغير غاص وسط الماء المشتعل، انتبه قسورة إلى كرة نارية كبيرة دفعها البركان نحوهما، حاول جذب أبيه بعيدًا عنها، احترق نصفه، التصقت الكرة بأبيه؛ انصهر معها، سقط في الماء، تدافعت الأمواج إلى الشواطئ محدثة حركة مد عظيمة، غرق كثير من المدن.

وفى اليوم التالي خرجت الصحف بأخبار البركان وما أحدثه من زلازل ودمار وغرق، بثت وسائل الإعلام صور الأقمار الصناعية للحمم والمعادن المنصهرة الخارجة منه، وصل بعضها إلى الشاطئ في شكل قطع مختلفة الأحجام.

نشرت جريدة أجنبية ناطقة باللغة العربية هذا الخبر وتناقلته وسائل الإعلام كلها:

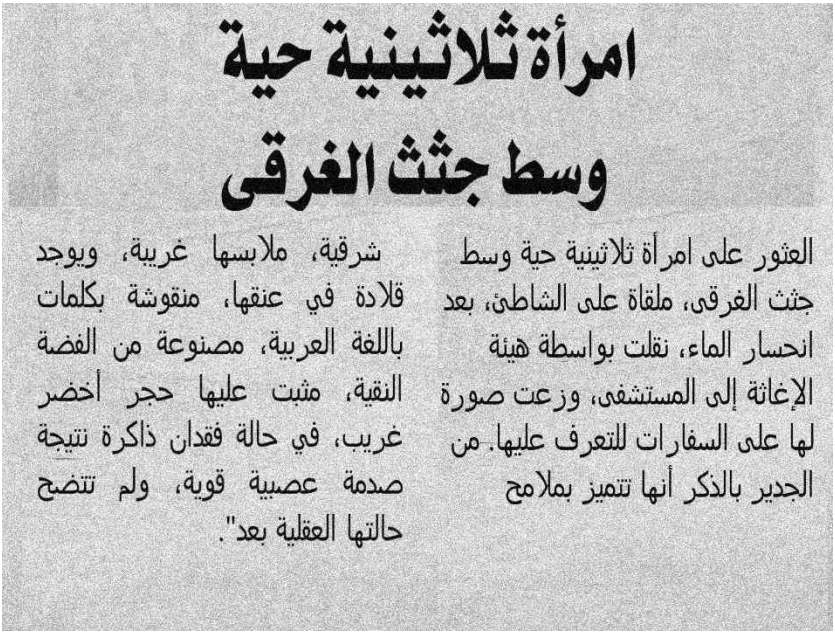

امرأة ثلاثينية حية وسط جثث الغرقى

العثور على امرأة ثلاثينية حية وسط جثث الغرقى، ملقاة على الشاطئ، بعد انحسار الماء، نقلت بواسطة هيئة الإغاثة إلى المستشفى، وزعت صورة لها على السفارات للتعرف عليها. من الجدير بالذكر أنها تتميز بملامح شرقية، ملابسها غريبة، ويوجد قلادة في عنقها، منقوشة بكلمات باللغة العربية، مصنوعة من الفضة النقية، مثبت عليها حجر أخضر غريب، في حالة فقدان ذاكرة نتيجة صدمة عصبية قوية، ولم تتضح حالتها العقلية بعد".

تمت بحمد الله

إيمان الوكيل